سنوات الشتات

سنوات الشتات

الاستاذ الدكتور
جميل موسى ضباب

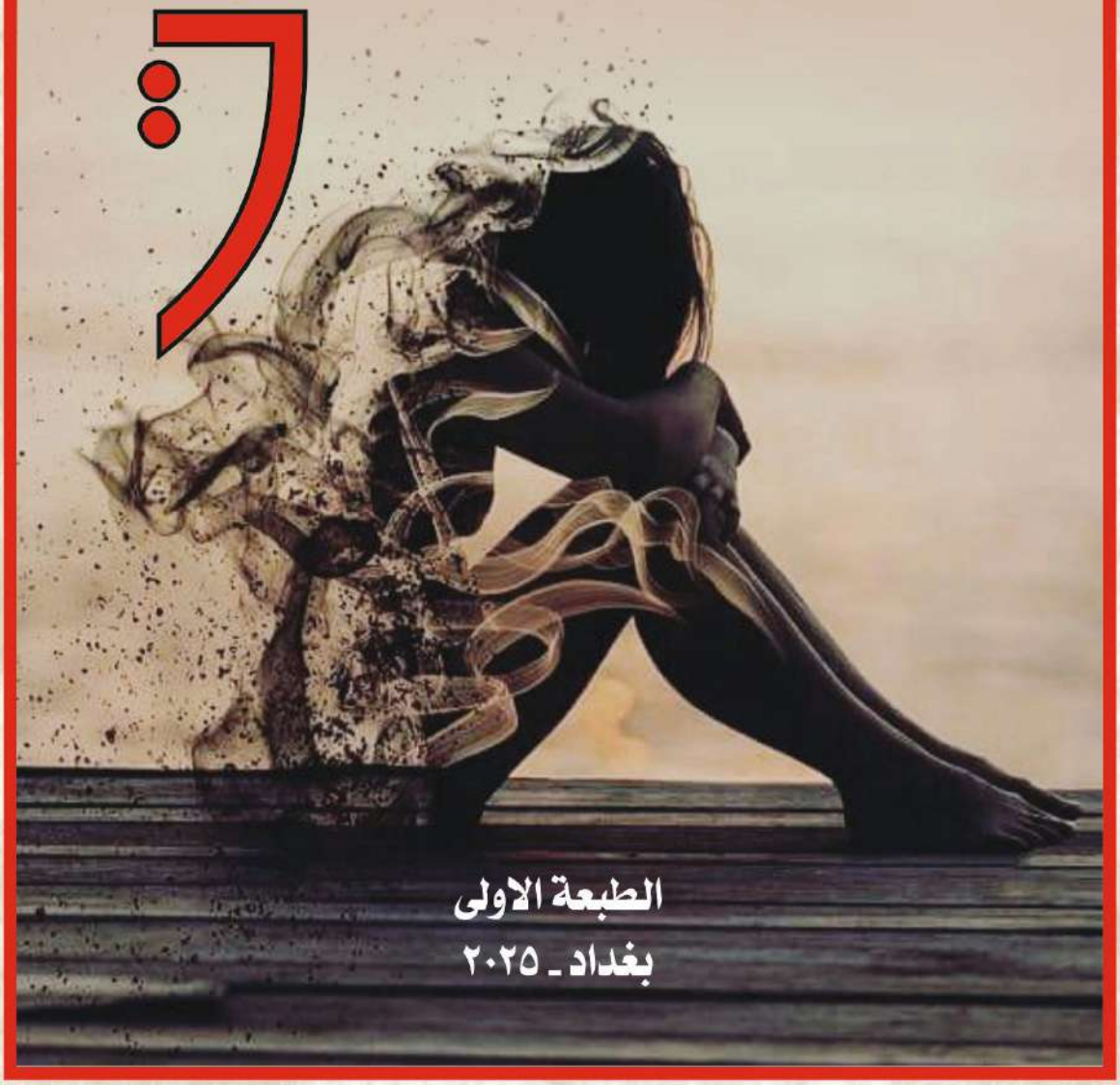

الطبعة الاولى
بغداد ـ ٢٠٢٥

سنوات الشتات

جميل موسى ضباب

الطبعة الاولى

بغداد – ٢٠٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتب زاكي للطباعة

٨١٣ / ٩٠٥٦٣

ض ٢٢٢ ضباب ، جميل موسى

سنوات الشتات / جميل موسى ضباب .
ـ ط١ ـ بغداد : مكتب زاكي ، ٢٠٢٥
ص (٩٦) : ٢٣ سم

١. القصص العربية ـ العراق ـ أ ـ العنوان

رقم الايداع
١٦٨٠ / ٢٠٢٥

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٦٨٠) لسنة ٢٠٢٥

سنوات الشتات

جميل موسى ضباب

الطبعة الاولى

بغداد – ٢٠٢٥

إهداء...

الى ...

من غرس بذرة الوفاء في تربة اربعيني من دون طمع .. وصاغ من تشتتي ضياء هدايتي وصمودي .. وألهمني ذكره لكل فضيلة .. وآمن بأشياء من مكنوناتي لم يرها الآخرون ..

جزاك الله عنها ، وجعلها حسنة في خزين اعمالك ...

استهلال سردي

تخلَّلت تلك السنين ، وأنا أجوب أرجاء الوطن وخارجه ، بين السهل والصعب ، والجميل والقبيح ، والحلّ والترحال ، تاركاً ما أفعله في طريقي إلى الله أمرهُ وتدبيره ، مستسلماً لحكمته ورحمته . واتذكَّر تلك الحقبة من الزمن ، فِاذا كتبتُ مشاهدها في نتاجاتي ومذكِّراتي عادت حيَّة أمامي ، وإذا خرجتُ ألى الحياة رأيتُها تتجلى في سائر شؤوني ، حتى كشف الله امراً كنتُ أبصره في قلبي ، ولو كان صعب المنال . فكان يكشف لي أن اطلع على علمٍ ، أو انشرُ كتاباً أو أحمل مريداً في طريق الهداية والمعرفة. وبين خلوةٍ وجلوةٍ ، تأرجحت حياتي منذ نزوحي من البرزخ الاول حين ولادتي بين الظاهر والباطن ، حتى انال البرزخ الثاني عند وفاتي ، حيث يستكمل القدر مسيرتي في افقٍ آخر من الوجود. وبين نور ساطعٍ يُضيء طريقي ، وبين ليلٍ مظلمٍ كصندوق مغلقٍ لافرجه فيه ، كنتُ مؤمناً ان الله يوجِّه دفة طموحي بما يرضاه حتى لو أختلفت الناسُ في أمري ، أو اختلفُ انا في أمرهم ، فالبوصلة دائماً نحو الحق ، وإن خفيت معالم الطريق. كانت حكايتي مع صديقي عزيز هذه المرة ليس بهذه البساطة ، فقد انقطعت اخباره منذ أكثر من اربعين عاماً ونيف ، لكنه لم يغب عن ذاكرتي لحظة . لا يفارقني طيف لقائنا الأول عام ١٩٨٤ ، حين التقيته

في معسكري القريب من قريته (قرية ميردي– محافظة السليمانية). كان ذلك اللقاء بداية الصداقة لم تطوها الأيام ، برغم صمت السنين الطويلة. بعد عام ٢٠٠٣ ، تجدد في داخلي الشوق لمعرفة مصيره ، فبدأت أبحث عن أخباره ، متتبعاً أي خيط قد يقودني إليه ، وكأنني أحاول استعادة جزء مفقود من ذاتي ، أو صوتٍ ظل يتردد في أروقة الماضي ، ينتظر ان يسمعه الحاضر من جديد. طال بحثي حتى انتابني اليأس ، لكن إصراري لم يخفت. كنتُ مؤمناً ان إلحاحي سيقودني إلى اخباره ، وفعلاً أثمرت إحدى محاولاتي حين حصلت أخيراً على رقم هاتفه ، بعد ان تيقنت انه يسكن في مدينة لندن. لحظة العثور على الرقم كانت اشبه بإيقاظ ذكرى نائمة ، كأنني أمسكت بخيط الزمن الممتد بيننا ، مستعداً لأبعث صداقتنا من جديد بعد تلك العقود.

قرية ميردي

قرية ميردي باسطةٌ ذراعيها على وادٍ هادئٍ ، يحتضنه جبلان شاهقان ، جبل طريق باشا من جهة ، وجبل ميردي من الجهة الأخرى ، يعلو الأخير بقمةٍ متسنَّمة ، تُشرف من عليائها على السفح ، حيث تبدو الاشياء تحته صغيرة ، ساكنةً ، وكأنها خارج الزمن . في شماله ، أكلت الأرض حوافه تدريجياً ، وكأنها تنحني أمام اتساع السهل ، فاسحةً المجال لمرور الطريق العام المعبد الذي يشقُّ المكان كخيط ممتد بين الماضي والحاضر ، رابطاً القرية بالعالم ، فيما تبقى القمة شامخة ، تراقب في سكونٍ حركة الحياة من علٍ .

تتوسط القرية المسافة بين قضاء عربد وقضاء دربندخان ، وكأنها نقطة وصل بين الجبال والسهول . عند النظر اليها من السفح الشرقي تتراءى أشجارها كأنها رؤوس أفاعٍ تلوح بين روضةٍ معتمة الخضار ، متشابكة الأغصان ، توحي بالغموض والجمال في آن واحد .

تتخللها عين ماء صافية ، تنفث ماءً زلالاً عند اشتداد الهجير في ايام الصيف كأنها أنفاس الأرضُ تطفىء ظمأ الواردين ، وتهمس لهم بسرَّ الحياة المنبعث من جوف الصخور ، حيث يلتقي شموخ الطبيعة بحنّوها في

لوحةٍ واحدة. مما يلف قرية ميردي بحبورٍ دائم ، وأن طبيعتها تتواءَم مع الحياة بكرمٍ وسخاء ، وكأنها تروي قصةً لا تنتهي من العطاء .

كانت عائلة عزيز تملك اغلب المساحات الزراعية حول القرية وعلى إمتداد الطريق العام ، تعيش في بحبوحةٍ من العيش ينعم افرادها بخيرات الارض التي تعهَّدوها بالرعاية .

اما عزيز ، فكان يملك حقل دواجن يحتضنه انحناء يشبه الهلال من الجبل ، في موقعٍ يجمع بين الحماية والسكينة ، تدخله ريحٌ هادئة في أيام الشتاء ، وتمنع عنه الهوام في ليالي الربيع ، وكأن الطبيعة أعدَّته ليكون واحةً آمنة وسط السفح .

هذه القرية لم تكن مجرد مكانٍ في الجغرافيا ، بل كانت مصدر إلهامي، وشاهداً على صداقتي بعزيز ، حتى دفعتني اشواق الذكريات إلى ان احزم ما تبقى منها ، علَّها تتآلف مع ذكرياته الحبيسة طيلة تلك المدة ، بعد أن اهتديت الى غربته في مدينة الضباب(لندن) . هناك ، اكتملت الصورة ، وأكملَ معي فصول حياته المثيرة التي عاشها بعد فراقنا .

المنفى (١٩٧٦م)

عزيز ينتمي الى القبيلة الكردية (بابان) ومن عائلةٍ مناضلةٍ عرفت معنى الكفاح والنضال . كان عمه شخصية قيادية كردية من الصف الاول، يسعى بكل شغفٍ ليحصل هو وشعبه الكردي على الحرية في وطن معلوم ، مؤمناً بأن العدالة تستحق كل تضحية .

لكن طريق النضال لم يكن مفروشاً بالورود ، فقد عانى كثيراً من الاضطهاد والملاحقة ، ودفعت ثمن ذلك عائلته حيث شُملت بالترحيل القسري الى مدينة (الشطرة) في محافظة ذي قار .

الشطرة ، تلك المدينة الجنوبية العريقة ، ليست منفى ، بل موئلٌ للتاريخ يتناثر منها عبق التراث العميق للحضارات القديمة . فمن شرقها تنهض حضارة لكش ، ومن شمالها الشرقي تتلألأ حضارة أكد ، اما في جنوبها الشرقي فتتجلى حضارة سومر حيث ولد أول حرفٍ عرفته البشرية.

في تلك المدينة ، عاش عزيز ، محمولاً على إرث قومه وكفاح عائلته، تتنازعه ذكريات الجبال وأصداء المدينة السومرية التي أحتضنته مؤقتاً ، قبل أن تأخذه الأيام الى مساراتٍ لم يكن يتخيّلها .

تجد الشطرة مدينة غنّاء ، ساخنة الحركة ، لا تعرف السكون ، فصباحها متصلُ بليلها ، واسواقها مكتظةٌ تضجُ بالحياة ، نابضة بروح أهلها الذين يعطونها هويتها الفريدة. من حق أبنائها أن يتفاخروا بها ، فهي ليست مجرد مدينة ، بل رمز يربط التراث بالحداثة ، حيث يلتقي الماضي بالحاضر في مشهد متجدد لا ينقطع .

هذا التفرد يجعل كل من يسكنها يتعايش مع سكانها ، ويتشرّب نفحات خصالها التي لم تجفّ ، بل تتجدد وتُستنسخ في محاجر الذكريات ، عالقةً في وجدان كل من مرّ بها .

كان نصيب عزيز منها بالغاً ، إذ تركت بصمتها العميقة في روحه ، كما لو انها كانت قدّراً إضافياً في رحلته ، يضيف فصلاً من المعاناة ، ويصوغ هويته بأسلوب لا يمحوه الزمن .

وكان منصفاً في وصفه لهذه المدينة الجميلة ، فقد رآها كما هي: حضناً واسعاً جمع كل الطوائف والنَّحَل والمشارب ، مدينةً قد تكون نموذجية في تسامحها وأنفتاحها ، يحلم زائرها بأن ينال فيها عيشاً رغيداً بسلام .

لم تكن الشطرة مدينة طاردة ، بل كانت واحة للفرص ، فمن اراد العمل وجده ، ومن سعى الى الاستقرار شعر بالانتماء ، حتى أن الافكار والعقائد فيها نمت بإتجاهاتٍ متنوعة ، وأسهمت في صياغة بنيانها الثقافي لعقودٍ طويلة ، مما جعلها مدينة تتفاعل مع الزمن ، لاتجمد عند حدود الماضي .

اما طقسها ، فقد احبه عزيز بصدق ، لانه كان واضح الملامح ، لايخاتل الفصول؛ فشتاؤها دافئ مشمس ، وصيفها جليّ ، ولكلٍّ منهما رمزيته الخاصة في هذه المدينة .

في الشتاء ، كانت شوارعها العامة المنتظمة تحتمي بالمقاهي والدكاكين التي احتاطت جيداً لردع البرد القارس في بعض الأيام ، وكان أهلها يرتدون بدلاتهم الأنيقة ، علامةً على رفاهية سكانها واستقرارهم .

كان مندهشاً كلما نظر إليها ، إذ لم يجد فيها تلالاً أو سفوحَ جبالٍ كما أعتاد في مدينته السابقة ، بل امتدت امامه المدينة بأنفتاح لا تُحاصرها الصخور ولا تقيّدها المرتفعات .

ولم يعد مضطراً لان يغالي في ثقيل ملابسه ، كما كان الحال في قريته الجبلية ، بل وجد في بساطة الطقس متنفساً جديداً ، يحرره قليلاً من إرث الشتاء القاسي الذي عاشه سابقاً .

اما فصل الصيف ، فقد كان رائعاً برغم حرارته المرتفعة ، التي لا تختلف كثيراً عن صيف مدينة السليمانية نهاراً ، لكن الليل له طابع خاص، حيث يتحول نهر الشطرة ، الذي يشق المدينة طولياً ، الى لوحة فوتغرافية متلألئة ، تعكس على سطحه وهج المصابيح المنبعثة من المقاهي المنتشرة على ضفتيه .

كان عزيز يجد في المشهد نشوةً خاصة ، وكأن ملامح وجه محبوبته تتخلل تلك الانعكاسات المائية ، فتأسر روحه وتخلب لبه. يندفع بحماس ليجوب شوارع المدينة ذهاباً واياباً مع زملائه ، تتعالى ضحكاتهم الصاخبة، تحملها ليالي المراهقة وتحتفظ بها كذكرى طائشة مليئة بالحياة .

الأيام الاولى

عاش عزيز سنتين في مدينة الشطرة ، لكن أيامه الأولى هناك لم تكن سهلة ، فقد شعر بضيقٍ شديد في البداية. كان ما يزال شاباً يافعاً بالكاد بلغ الحلم ، وقد أُنتزع فجأة من بيئته الكردية في مدينة السليمانية ، حيث أكمل دراسته الأبتدائية والمرحلة الاولى من المتوسطة ، ليجد نفسه مضطراً للألتحاق بالمرحلة المتوسطة في الشطرة ، في مدينةٍ يختلف فيها كل شيء؛ اللغة ، الثقافة ، الأصدقاء ، وحتى طبيعة الحياة .

كان عزيز فتىً نبهاً وواعياً ، يتمتع بوسامةٍ لافتة وجسمٍ مكتنزٍ يوحي لمن يراه بأنه اكبر من سنه . رغم صعوبة الايام الاولى في مدينة الشطرة ، ادرك مبكرا بذكائه الفطري ان الاندماج في المجتمع الجديد ، هو الحل الوحيد لتجاوز معاناته . ولم يمضِ وقت طويل ، حتى شعر بأنه شخص مرحب به في كل لقاءٍ أو مناسبة ، مما منحه دافعاً قوياً لكسر حاجز التردد والخجل .

بدأ عزيز بالتردد على أسواق المدينة وملاعبها ، وأصبح جزءاً من حركتها اليومية ، يعبر أحد الجسور الثلاثة التي تربط ضفتي النهر بأبهتها المعتادة .

وفي إحدى جولاته ، لفت انتباهه مكتبة كبيرة ، غنية بمختلف أنواع الكتب ، يرتادها أشخاص من مختلف الاعمار والاتجاهات الفكرية. دفعه شغفه وفضوله إلى تفحص الصحف والمجلات المعروضة بنظرة مندهشة ، وسرعان ما أصبح زبوناً منتظماً ، يقتني مجلتي"الموعد والأيام" ، اللتين كانتا من أوسع المجلات انتشاراً آنذاك. كان يتمعن في الصور ، ويقرأ المقالات بصعوبةٍ تلامس اهتماماته وثقافته،مما عزز شغفه بالمعرفة. لم يكن يتردد في الأصغاء إلى زملائه في المدرسة المتوسطة أو أصدقائه من الجيران كلما دار بينهم نقاش أو تساؤل ، وكان الجميع كريمين في تبادل المعرفة ، فلم يبخلوا عليه بأي معلومة قد تثري إدراكه ، مما ساعده على التكيف بسرعة مع بيئته الجديدة .

كان عزيز يتردد بشغف على تلك المكتبة ، يكتشف بين رفوفها عالماً من المعرفة. وفي إحدى المرات ، وقعت عيناه على صحيفة تصدر باللغتين العربية والكردية ، وهي صحيفة "طريق الشعب" ، التي كان يصدرها الحزب الشيوعي العراقي. شعر حينها بأندهاش عميق ، وكأنه عثر على هدية العمر ، ومنذ تلك اللحظة ، أصبح يداوم على مطالعتها يومياً ، ينهل من مقالاتها بكل اهتمام.

وبدأت الحكاية

في أحد الأيام ، وبينما كان يخرج من المكتبة ممسكاً بتلك الصحيفة ، أحس بثقل في ساقيه ، كأن خدراً أصابه فجأة. كانت دهشته قد بلغت ذروتها عندما وقعت عيناه على شابة نحيلة ، لكنها ممتلئة القوام ، نظرت إليه بعينين ثاقبتين ، وكأنها تقرأ أفكاره .

فجأة ، باغتته بسؤال حازم ومباشر:

– أنت كردي ؟

– نعم .

– هل تعرف من يصدر هذه الصحيفة ؟

– تقريباً .

– وهل أنت منتمٍ ؟

– لا .

مرت لحظات ثقيلة بينهما ، وكأنها كانت تمتص وقع الإجابة غير المرضية بالنسبة لها . قبل أن تتابع حديثها بنبرة جمعت بين التعاطف واليقين ، وكأنها تعبر عما كان يدور في ذهنه بالفعل :

أنتم شعب مظلوم وتطالبون بحريتكم وبوطن معلوم. كانت كلماتها صادقة ومباشرة ، أصابت عمق وجدانه ، وتركته غارقاً في دوامة من الأفكار والمشاعر التي لم يكن قد واجهها بهذا الوضوح من قبل .

شعر عزيز بتلك الكلمات تسري في روحه ، ليس فقط لوقعها العاطفي ، ولكن أيضاً لطريقة نطقها ، فقد قالتها بتغنج وحنية ، بعدما كان يظنها متهورة تحمل طيش الشباب .

أصابته بحالة من الأسر العاطفي ، بين رغبةٍ في الإفلات من تأثيرها وانصياعٍ لوهج شخصيتها الآسرة .

لم يكن هذا اللقاء الوحيد ، فقد تكرر عند واجهة تلك المكتبة ، حيث أصبح يترقب قدومها من دون وعي ، حتى عرف أسمها "حياة". كانت طالبة في مرحلة الخامس الأعدادي ، وكان هو ينسج شراكاً خفية ، يحاول بها تهيئة الظروف التي تجعل اللقاءات تتحقق بشكل طبيعي ، وكأن الأقدار نفسها بدأت تلعب دورها في رسم خطوط قصة غير متوقعة .

الحديقة العمومية

اصبحت الحديقة العمومية بمثابة قبلته المقدسة ، المكان الذي يلجأ اليه بشغف ، حيث كان يفصلها عن النهر طريق معبد يمتد شمالاً وجنوباً ، تأخذ اشجار الكالبتوس كمصد للاتربة وحجبها للناظر خارج الحديقة ، كما تتناثر اشجار الدفلى بين ممراتها المرسومة بعناية ، وفي الربيع تصطف ازهار الجوري بمنظر يخلب الافئدة مما يريح من يلتمس المطالعة للتهيُّؤ للامتحانات النهائية. هناك وجد عزيز متنفساً لخواطره وأفكاره ، حيث تلاقت لحظاته الخاصة مع نبض المدينة ، وبين ظلال الأشجار وأصوات المارة ، أصبحت هذه الحديقة مع المكتبة العامة القريبة منها ، جزءاً من طقوسه اليومية ، يراقب الحياة تمضي من حوله ، وهو في أنتظار لحظة لا يدري متى تأتي .

كان أغلب رواد الحديقة يستغلون المقاعد الخشبية المنتظمة في ممراتها ، يجلسون عليها بدراية وهدوء ، وكأنها محطات صغيرة للتأمل والحديث .

تكرر اللقاء بينهما ، وأصبح حديثها يرسخ في ذهنه خصوصاً عندما تحدثت عن الدكتورة نوال السعداوي ، ورؤيتها حول شرف المرأة وجمالها ، حيث قالت : "شرف المرأة عقلها ، وجمالها كلامها"

وجد نفسه مشدوداً لكلماتها ، مأخوذاً بحضورها المميز ، وكان يشعر بأنها تبادله الاستلطاف ، برغم أنها لم تقل ذلك صراحة. أما هو ، فقد بدأ إعجابه بها ينضج ببطء ، كما ينضج الشراب المعتّق مع الأيام ، حتى أصبح حديثها المَرْوَى الوحيد لروحه وسط زحام المتاعب التي واجهته ، ولقاؤها ملجأً يستكين إليه كلما اشتدت عليه الحياة .

كان الودُ بينه وبين حياة بمثابة استنفار لمداركه ، دفعهُ لتعلم اللغة العربية بسرعة تفوق توقعاته ، فقد كان شغفه بها حافزاً خفياً جعله يبذل جهداً مضاعفاً. لم تكن مجرد صديقة ، بل سند حقيقي في دراسته ، تساعده في أغلب المواد الدراسية ، وإن كان ما يزال متعثّراً في بعضها .

أما زميله في الدراسة ، سلام فكان شاباً نقي السريرة ، ينتمي لعائلة تعليمية ، وكان بمثابة اليد التي تمسك به في الحياة اليومية ، يعينه في تفاصيل العيش والتأقلم. وبفضل جهوده المتواصلة ، تمكن عزيز من تجاوز تلك السنة ، لكنه ظل متّعثراً في مادة اللغة العربية ، التي لم يستطع اجتيازها إلا بصعوبة في المحاولة الثانية ، وكأنها كانت العقبة الأخيرة في طريق اندماجه الكامل في بيئته الجديدة .

أحب هذه المدينة بشغف ، وكأنها أصبحت جزءًا من روحه ، فتوسعت مداركه إلى آفاق جديدة واصبح ينسجم مع الجميع بسلاسة لم يكن يتوقعها . لم يعد شاباً غريباً الذي يحاول التأقلم مع حياته الجديدة ، بل أصبح فرداً من نسيجها الأجتماعي ، ينسج صداقات عديدة مع

مختلف أطياف المجتمع. لم تتوقف الروابط عنده وحده ، بل أمتدت إلى عائلته ، التي بدأت تقيم علاقات وطيدة مع عوائل أخرى ، مما جعل جذور مودته لهذه المدينة تتعمق أكثر. ومع مرور الوقت ، شعر بأنه يعيش الفلسفة الصينية القائلة : " غير الحب ...لا يوجد شيء"

هذا الحب المتبادل هو ما جعل هذه المدينة وطناً آخرَ له ، لا يقل عن مسقط رأسه أهمية في وجدانه.

حرص عادل على عدم تفويت أي فرصة للقاء بفتاته ، وكأن القدر نفسه يتآمر لصالحهما ، فيضع في رأسه منبهاً خفياً ليذكره ، أو ربما كانت هي تبادر بالتخطيط لهذه اللقاءات ، لتضمن أن تظل خيوط الود بينهما مشدودة دائماً .

وعندما كان يغادر الحديقة العمومية ، اعتاد السير في الشارع المحاذي لها ، يمضي فوق الرصيف وهو منجذب لمظاهر المدينة ، يراقب تفاصيلها بعين المتأمل العاشق .

ان طلاب المدرسة يلعبون كرة السلة ، واصدقاءه يتجادلون بصوت عالٍ في ناحية أخرى ، وعلى الجهة المقابلة ، كانت واجهة "نادي الشطرة للشباب" بلونها المميز ، تنتصب فارضة وجودها على الشارع ، كأنها حارس صامت يراقب الحركة من حوله. لكن المدينة كما الحياة لم تكن كلها وداً وسلاماً .

ذات مرة ، ضايقه شاب مفتول العضلات ، كان يتربص به باحثاً عن فرصة للاعتداء عليه ، رماه ذلك الشاب بنظرة مدمرة ، حاول عزيز

أن يجهز نفسه للرد بشتيمةٍ قاسية ، لكن حذاقته سبقته ، فأشاح بوجهه إلى جهة أخرى وكأن الأمر لا يعنيه ، متفادياً المواجهة بحكمة وهدوء .

بدا متحسباً لمثل هذا الموقف ، فقد حذرته حياة مسبقاً من هذا الشاب ، إذ كان قد سعى للاقتراب منها لكنها صدّته مراراً ، لأنه لم يكن على هواها ولا يرقى لذائقتها. وها هو اليوم ينقل عداءه نحو عزيز ، كأنما أراد أن يثأر لكبريائه الجريح ، لكن الأخير كان أكثر دهاءً ، فلم يمنحه فرصة الاشتباك أو تحقيق نصر وهمي .

اصبح ركن تلك الحديقة العامة بمثابة صومعته المقدسة ، حيث يجد ملاذه في زحام المدينة ، وتشهد حركة دائمة تكفي لصرف الأنتباه عنهما ، مما يمنحهما مساحة خاصة للحوار والبوح. كان يجلس هناك ، يتأمل الحديقة الممتدة من حوله ، بعشوائية نباتاتها المتناثرة ودغلها الملتف ، فيما كانت أذنه تصغي أكثر مما يتكلم ، وكأن شريط ذكرياته الطرية يسجل كل همسة ونبرة ، يتلفظ بكل كلمة بمخارجها الدقيقة ، بينما ينجرف بأنبهار إلى أفق يحمله نحو حلم جميل .

الحب والثقافة

كانت حياة لا تبخل عليه بفيض كلماتها المعجونة بأفكار مترفة ، تتحدث عن مغزى الحرية وحلم الوطن ، وتسقيه بجرعات من التجارب العالمية مثل : الثورة البلشفية في روسيا ، وتروي حكايات عن أبطالها ، وعلى رأسهم فلاديمير لينين ، أحد أهم صناع التاريخ العالمي المعاصر. كانت تبهره بحديثها عن صمود كوبا برغم مجاورتها لترسانة الرأسمالية الأمريكية ، وعن نضال الشخصيات العظيمة التي ضحّت من أجل أوطانها ، وأتخذت قرارات مصيرية غيرت مجرى التاريخ ، مثل مارتن لوثر كينغ في نضاله لإنهاء التمييز العنصري ضد السود. اما هو ، فقد حجز لها حجرة خاصة في الرف العالي من ذاكرته ، حيث رمت بشغف كلماتها العذبة ، وسرت حلاوة حديثها في وجدانه ، فيما كانت تؤطره بدلالٍ يصيبه بنبلة ذات شوكتين :

إحداهما تخدره بنشوة الحب ، والأخرى تعمق جذوره في خليج ثقافته .

بدأ يناقشها بصوت متقطع ، يكتنفه الخجل تارةً ويتجرأ أن يتفوه بلباقةٍ تارةً أخرى ، وكأنه يختبر قدرته على التعبير أمامها. أما هي ، فقد

كان محياها يفيض بحبور واضح ، وكأنها معلمةٌ فخورةٌ بتلميذها المجتهد ، لكنها في الوقت نفسه كانت تستمتع بهذه اللكنة المحببة التي تميز حديثه .

كانت تشعره بسعادتها الحقيقية كلما لاحظت تحسنه في العربية ، تشجعه بلطفها وأهتمامها ، فيزداد حماسه للوصول إلى مستوى من الفصاحة يرضيه ، لكنه يجد صعوبة في الإفصاح عن مشاعره الحقيقية تجاه هذه الفتاة الملائِكية التي أهداها له القدر .

لكن الله عوضه عن تعثر كلماته بميزة أخرى ، فقد كانت حياة لماحة، تقرأ ما يجول في داخله دون أن ينطق. كانت تفهم احمرار وجنتيه ، وابتسامته الخجلى ، وتلاحظ كيف يبحر في حوَر عينيها بكل انبهار ، لكنها كانت تحيد عنه بنظراتها عن قصد ، تاركةً له مساحة التيه اللذيذ بين الكلمات والصمت.

في الأيام الأخيرة ، بدأت تمهّد لحديث الفراق ، تذكّره أن عودته إلى دياره باتت قريبة ، وأن العام الدراسي الجديد يزاحم وقتها ، مما قد يشغلها تماماً. كان حديثها يحمل إيحاءً خفياً بإنها لن تجد فرصة أخرى للقائه ، لكنه لم يدرك حينها ، أن كل شيء يهب لك السعادة تسجله في رصيد الزمن يوماً ما يشح ، أو يصعب تكراره.

اللقاء الأخير

التقيا في موعدٍ حددته بنفسها ، لكنها ، برغم دفء اللحظة ، كانت حريصة على ألا تغرقه في العاطفة حتى لا يتعلق بها بجنون ، وتفسد عليه فرحة العودة إلى مدينته ، وهدأته بالتحلي بالصبر ، عسى الأقدار تمنحنا فرصة أخرى للقاء بعد أن يحقق مراده في الالتحاق بالجامعة ، كما تروم هي. وتندرت بكلمات الشاعر بشار بن بُرد :

إذا أنت لم تشربْ مِراراً على القَذى*** ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربهُ

بدأت حياة تتهيأ لعامها الدراسي الأخير في المرحلة الاعدادية ، حاولت أن تتناسي ذلك الشاب الذي ترك بصماته عميقة على وشاح وجدانها ، لكنها كانت تعلم أن مستقبلها يتحدد في هذه السنة المصيرية. أما عزيز ، فقد تهيأ لمغادرة المدينة ، يحمل حلمه في قلبه حلماً أنكفأ عنه ، وذكرى لم تكتمل فصولها . لكن رغم ذلك كانت عودته الى دياره عزاءه الوحيد .

حياة في بغداد (١٩٧٨م)

أكملت حياة دراستها الاعدادية ، وتم قبولها في إحدى جامعات بغداد ، قسم الهندسة الكيمياوية ، لم تكتفِ بالدراسة فقط ، بل واصلت نشاطها ضمن (تجمع الشباب الطلابي) ، وهو مجموعة شبابية من الطلاب والطالبات الجامعيين ، تهدف إلى المطالبة بحرية التعبير وتحقيق المساواة. لكن هذا التجمع كان مرصوداً من قبل الجهات الامنية آنذاك ، مما جعل نشاطها محفوفاً بالمخاطر .

خلال تلك المدة تقدم لها أكثر من زميل من الجامعة ، لكنها كانت تتحجج بأنها لم تفكر في الزواج حالياً ، وكأنها تتجنب شيئاً ما أو تنتظر أمراً لم تفصح عنه .

وأثناء دراستها ، انتقلت عائلتها من مدينة الشطرة إلى أحد احياء جانب الكرخ من مدينة بغداد ، حيث أستقرت هناك.

بعد تخرجها ، تم تعيينها في أحدى الدوائر النفطية في بغداد ، وبدأت مرحلة جديدة من حياتها ، بعيدة عن دفء مدينتها الأولى ، ومثقلة بذكريات الماضي وأحلام المستقبل .

في بغداد ، تقدم لخطبة حياة ضابط من نفس الحي ميسور الحال ، من عائلة ذات حسب ونسب. كان يروم ودها بشغف ، ويسعى لكسب قلبها بأي طريقة .

نـزولاً عنـد رغبـة اهلهـا ، وافقـت علـى الخطوبـة ، وجـرت المراسـم يشـكل مميـز ، حيـث غمرهـا بالحنـان ، وأهـداها كميـة مـن الـذهب أبهـرت أهلها ومحبيها. تكرر لقاؤهما عدة مرات في بيت أهلها ، ومع مرور الوقت كسب ودها وود عائلتها ، حتى باتت خطوبتها حديث المحيطين بهما. كان هذا ما يريده الضابط ، أن يحيط نفسه بهالة من المثالية والكمال ، ليضمن أن تسير الامور كما يروم .

الصدمة

بعد عشرين يوماً من الخطوبة ، فاتحها خطيبها بأنه يمر بظروف قاسية تمنعه من إتمام الزواج ، دون ذكر سبب مقنع. كانت صدمة قاسية لها ولاهلها ، وبدأت تبحث عن السبب دون جدوى. حتى زوجة أخيها ، رغم كون الخاطب أبن عم والدها ، لم تتدخل مما زاد من إحساسها بالخذلان .

غشيتها مرارة بالغة ، وغرقت في خيبتها ، إذ لم تجد مبرراً لهذا الانسحاب المفاجئ. ومع مرور الوقت ، اضطرت لتقبل الحقيقة المرة ، لكنها فقدت ثقتها بالرجال نهائياً. أقسمت ألا تمنح أحدهم فرصة أخرى ليبتليها بالتعاسة ذاتها ، وأصبحت ترفض فكرة الزواج . حاولت أمها إقناعها بالعدول عن قرارها خوفاً من"العنوسة" ، كان هذا المصطلح يحدث لها كابوساً بشعاً كأنه عارُ ، لكن حياة كانت ترى الأمر من منظور مختلف، وكانت تلمح لوالدتها بأنها لن تتزوج إلا إذا اقتنعت تماماً .

بعد سنة ، عاد الخطيب يطلب إعادة الخطبة ، لكنها رفضته بشكل قاطع ، خاصة بعد أن شجعتها زوجة أخيها على ذلك. لاحقاً ، أخبرتها إحدى قريبات الخاطب بحقيقة صادمة– كان الخاطب على علاقة عاطفية عميقة بزوجة أخيها ، وخطبها عدة مرات من أهلها ، لكن والدتها

رفضت بشدة . كان غرضه الحقيقي ليس الزواج ، بل إغاضة وحَنقة زوجة أخيها والتقرب منها بأي وسيلة. غير أن خطته باءت بالفشل ، لأن البنت لم تعره أي اهتمام ، وزوجها أحبها وهي أحبته ، مما أثار غضبه بشدة. لم يحتمل الهزيمة العاطفية ، فأرتكب خطأ قاسياً بحق حياة ، سيظل محفوراً في ذاكرتها إلى الأبد .

أصرت ان تبدأ حياتها من جديد ، بعد أن نفضت تراب الماضي دون آسف عليه .

كانت تستريح من سفر طويل مليء بالوعثاء ، وحاولت بجلد أن تنظف جروحها قبل أن تخيطها ، فالجروح لا تلتئم إلا إذا خرجت أضغانها. لكن برغم ذلك ، لم تشفَ تماماً ، لأن الأشياء التي نهرب منها تظل تلاحقنا . بدا كأن عداوة خفية قد تشكلت في داخلها تجاه الرجال ، فأصبحت أبلغ حذراً وأكثر انغلاقاً على نفسها . كرست كل وقتها للعمل، وأصبح شغلها الشاغل ، وملاذها الوحيد . التحقت بدورة في معهد اللغة الفرنسية ، وكأنها تبحث عن أبواب جديدة تهرب عبرها من ذكرياتها القديمة. وأجادت بها اضافة الى اللغة الانكليزية .

حافلة ٣٦

في الفترة الأخيرة ، غيّرت طريقتها في التنقل . باتت تستقل حافلة يومياً من محطة قريبة من سكنها ، تسير بمحاذاة نهر دجلة ، ثم تنعطف يميناً إلى الشارع الرئيس حتى تصل إلى نهاية محطة الدورة ، حيث تواجه دائرتها وتبدأ يومها العملي . وهكذا أصبحت هذه الرحلة اليومية طقساً ثابتاً في حياتها الجديدة .

كان كل من في الحافلة يتخذ مكانه عشوائياً ، لا شيء منظم سوى حركة الطريق . كان المهندس عادل على أعتاب الثلاثين ، يشارك زملاءه في الحافلة ، رحلتهم اليومية ذهاباً وإياباً .

جلست حياة في المقعد المقابل له بجوار النافذة ، تحدق إلى الطريق ، كما لو كانت تبحث عن شيء يشغلها طوال الرحلة. أما عادل ، فقد كان يشيح بنظره إلى الداخل بين الحين والآخر ، لكنه تجرأ أخيراً وسألها بأدب :

- تعيين جديد ؟
- لا ، ولكن أول يوم أستقل هذه الحافلة .
- اليوم !
- نعم ، حاولت أن أجرب هذا الطريق إلى دائرتي .

- أي دائرة ؟
- مجمع مصفاة الدورة .
- قريبة من عملي ، ولكن من الجهة المعاكسة. نظر إليها بأهتمام وأردف :
- أنا مهندس مدني عادل هناك .
- أهلا أستاذ ، وأنا مهندسة كيمياوية حياة .
- أبتسم وقال تعليقاً على أسمها :
- هذه الحافلة تشبة الحياة ، لكن لكل واحد منا جهته .

وهكذا بدأ حديث عابر ، لكن في ثناياه بذور حكاية لم تكن تتوقعها .

مر أسبوع على حديثهما وجلوسهما متقابلين ، يراقبان الطريق ويتبادلان كلمات قليلة تحمل بين طياتها معاني من الترقب والحذر . وفي ذلك اليوم ، عند عودتهما من العمل ، وجدت حياة أن المقعد الوحيد المتاح كان بجوار عادل. تنحى قليلاً ، كأنها ردة فعل طبيعية منه لإفساح المجال لها. جلست ، وأخذت تستغرق في الحديث عن العمل ومشقاته بطلاقة ، وكأنها تزيح عن كاهلها ثقل التعب. أنهت حديثها قائلة :

- يبدو أنك غير متذمر من عملك ؟
- نظر اليها بعينين تحملان فهماً أعمق مما تقوله الكلمات وأجاب :

- كل منا إذا جد في عمله وأخلص فيه ، سيجد فيه متعة . وأنتِ ، على ما يبدو ، لستِ كما تدّعين . توقفت قليلاً ، وكأنها تبحث عن رد يناسب دهاء ملاحظته ، ثم اعترفت بأبتسامة خفيفة :
- الاعتراف بالحق فضيلة .. كنت بارعاً في كسر الحواجز النفسية وتبديدها. ضحك بصوت خافت ، مستمتعاً بهذا الإطراء العفوي الذي أفلت منها دون أن تقصد ، فيما استمرت الحافلة في المضي قدماً ، تماماً كما كانت الأحاديث تمضي بينهما بسلاسة غير متوقعة.

ومرت الأيام

في الأيام التي تلت ذلك ، كان ثمة مكان شاغر دائماً لها بجانب عادل ، وكأن الأقدار كانت ترتب هذه اللقاءات بعناية خفية . جلست حياة إلى جانبه كما اعتادت ، لكنها هذه المرة كانت غارقة في التفكير ، وكأن شيئاً ما يثقل روحها. قالت فجأة ، وكأنها تفكر بصوت عالٍ :

- الوحدة ... هاجسي الدائم .
- ألا تبالغين ؟ أطرقت قليلاً ثم قالت بحزم :
- الإنسان مفرط في الاجتماعية ، نحن نحتاج للرفقة ، لكن أحياناً ، الوحدة تجنبنا الزلل ، حتى دون إرادتنا . تأمل عادل كلماتها ، ثم ردَّ مبتسماً :
- لكن من يستطيع مشاركة أفكارك واهتماماتك ، ومشاعرك ، قد يساعدك على التخلص من الوحدة . نظرت إليه نظرة طويلة ، وكأنها تحاول أن تجد إجابة لم تخطر لها من قبل .
- كلُ منا ، يحتاج الى ألبقاء مع ذاته وينقح افكاراً يمليها عليه ألأخرون، يمكن يعرف أخطاءه .
- أنا متفق معك تماما ، ولكن أجد أنك تعرضتِ لموقف سبب لك تعاسةً ، ومن الممكن استيعاب من حولك .

- أن حياتي ألان لا تكاد تخلو من ألبشر . يبدو انك تعرضت الى شيء تكرهينه ولم تغفري ؟
- نعم ، تعرضت إلى كذبةٍ ساذجةٍ من صنع ألبشر . وأحاول ان أكتمها في طي ألنسيان .
- أراك غير ذلك ؟
- ليس شرطاً أن يعبر ألأنسان عن مشاعره بالطريقة ألمألوفة .

هنا جعل الكلام بينهما اكثر صراحة ويمضي وكأنهما يتسلى كل منهما فعلاً برؤية ألأخر.

بدأت الايام تعتاد رفقتهما في ذلك الطريق ، وتم طرح القدر اليسير من ألتفاصيل الحياتية الخاصة ، التي يخبر كل منهما الأخر. كان عادل يصغي لما تريد أن تفصح عنه دون جرها الى أعترافات لاتريد الادلاء بها ، لإنه كان يشعر معها بمشاعر ودية تفرضها الرفقة الجميلة. ذات مرة سألته دون مقدمات:

- أي صفة تحبها في المرأة التي ستكون زوجتك ؟ تأمل عادل السؤال للحظة ، وكأنه يبحث عن إجابة لم يفكر بها مسبقاً ، ثم قال بهدوء :
- أحب المرأة التي تفهمني دون أن أشرح ، التي تشعر بي من دون أن أتكلم ، امرأة لا أحتاج أن أمثل أمامها دوراً غير دوري الحقيقي .
- أجابة دبلوماسية جداً .
- ضحك عادل وقال مازحاً

- وهل كنت تتوقعين إجابة مباشرة مثل "أحبها جميلة وهادئة ومطيعة"؟
- هزّت رأسها وقالت بثقة :
- كنت أريد أن أسمع إجابة مختلفة ، وإجابتك...فيها شيء من الصدق الذي قلما أجده عند الرجال. ساد بينهما صمت قصير ، لكنه لم يكن صمتاً عادياً ، بل كان صمتاً يملؤه الف حديث لم يُنطق به بعد .

الإعتراف

وهكذا أصبحت ألأيام أكثر ألفة بينهما ، وكأن كل لقاء في الحافلة كان خطوة أخرى نحو شيء لم يكن أي منهما مستعداً للأعتراف به بعد .

نظرت إليه حياة بتمعّن ، وكأنها تزن كلماته في ميزان أفكارها ، ثم قالت بأبتسامة خفيفة :

- وهل التعلق بالذاكرة أهم من استمرار العشرة ؟

أجابها عادل بثقة :

- هناك أشخاص نعيش معهم سنوات ولا يتركون فينا أثراً ، وهناك من نلتقيهم للحظات ، لكن ذكراهم تبقى محفورة للأبد .
- صمتت حياة قليلاً ، ثم قالت بنبرة هادئة ، كأنها تحاول اختبار عمق حديثه :

أذن هل يعني ذلك أنك لا تؤمن بالاستقرار الطويل الأمد؟ ضحك عادل واجاب :

- بل أومن به ، لكن ليس على حساب المشاعر الحقيقية. الزواج ليس مجرد عقد قانوني ، بل رابط يجب أن يُبنى على فهم عميق ، لا مجرد التعود والتعايش .

ابتسمت حياة ، لكن في عينيها كانت نظرة حائرة ، وكأنها تبحث عن إجابة أخرى لم تتلقها بعد . كان الحوار بينهما قد أخذ بعداً جديداً ، بعيداً عن المجاملات ، وأكثر قرباً من المساحات المخفية في نفسيهما .

في تلك اللحظة ، شعرت حياة أن شيئاً ما في داخلها بدأ يتغير ، وكأنها تقف على عتبة عالم جديد لم تعتد عليه .

لطالما وضعت حاجزاً بين قلبها والعواطف ، لكن كلمات عادل هزّت شيئاً في أعماقها .

لم يكن مجرد إعجاب عابر ، بل كان شعوراً بالطمأنينة ، بأن هذا الرجل يفهمها أكثر مما تفهم نفسها.

نظرت إليه بطرف عينها وقالت ممازحة :

- إذن ، هل تعتبرني أحد أجمل الأشخاص الذين أرسلهم الله في طريقك ؟

ابتسم عادل وقال دون تردد :

- بل أنت الشخص الذي علُمني أن الجمال لا يُرى فقط ، بل يُحس ويُفهم .

أخفضت عينيها للحظة ، وكأنها تحاول إخفاء ارتباكها ، لكنها شعرت بدفء المشاعر يتسلل إلى قلبها اليائس ، تلك المشاعر التي كانت تخشى الاعتراف بها .

لأول مرة ، لم تعد تخشى الحديث عن المستقبل ، عن الحب ، عن فكرة أن تكون جزءًا من حياة شخص آخر دون أن تشعر بالخوف من الخذلان .

فكر عادل بعمق ، وتحدث ، أن الزواج مشروع مقدس ، ليس سلعةً تخضع لصفةٍ محددة ، المواقف هي التي تظهر تلك الصفات ، بأختصار لست مع فكرة فتاة ألاحلام .

– انت رجل جديّ واخشى أن تموت بجرعة عالية من الجدّية.

– انا أهتم بالمرأة التي تبقى في الذاكرة بعمق ألاثر لا بطول العشرة .

الزواج

شعر عادل أن حياة نقية كماءٍ وضوءٍ ، عذبةً ، تطابق افكاره ونظرته للحياة وأحاديثها جليةٌ في لغتها. كم هي فاتنةٌ ، ما زلتُ اتذكر اول حديثها كأننا أجريناه منذُ لحظات . وحياة تشعر الحديث معه متعة توازي ألنظر لعينيه عن قرب ، وكان يسعدها أكثر ، هو توافقهما في الافكار .

مازحها مرة :

وجهك خالٍ من المستحضرات ، ولكن أبتسامتك ، أفتك من أفضل مستحضرات التجميل ، وقد أبصرتك بالعين والقلب .

وماذا تقصد؟

– أقصد أنا ضد الزواج التقليدي ، ضده جملةً وتفصيلاً ، لأنه لا يتيح لكَ معرفة شريك حياتك تمام المعرفة .

كلامه وقع على مسامعها كالصاعقة ، وأحس بها عادل ، مما جعله يغير الحديث حتى هدأ روعها ، وأردف قائلا ، أنا أؤمن أن أجمل ألاشخاص في حياتي ، ليس أولئك ألذي أبحث عنهم ، وأنما أولئك الذين قدّرهم الله في طريقي ، مثل هذه المرة . حتى شعرت حياة بسعادة تغمرها، فهذا الكلام أقرار بأن عادل وقع في حبها ، فهزت كتفها مبتسمة ، أنها علامة الرضا .

أصبح الحديث بينهما أكثر صراحةً وبوحاً ، واتفقا على الزواج. لم يكن الزواج قراراً عابراً ، بل شعور تَراكم مع الأيام ، ونضج بين الحوارات العميقة والمواقف التي جمعت بينهما .

كان كل منهما يرى في الآخر ملاذاً آمناً ، وشريكاً يمكن الاعتماد عليه. عادل ، الذي لم يؤمن يوماً بالزواج التقليدي ، وجد في حياة شخصاً مختلفاً ، امرأةً تحمل فكراً ناضجاً وقلباً مرهفاً. أما حياة ، فكانت تخشى الارتباط بعد خيبتها السابقة ، فقد رأت في عادل صدقاً لم تعهده في رجل من قبل .

عندما صارحها برغبته في الزواج ، لم تتردد كثيراً؟ كانت تعلم أن هذا الرجل مختلف ، وأنها معه لن تخشى الوحدة أو الخذلان . بابتسامة هادئة ، قالت له :

- إذا كنت تظن أني أجمل الأشخاص الذين أرسلهم الله في طريقك ، فهل أنت مستعدُ لتبقيني في حياتك إلى الأبد؟
- أمسك يدها برقفق ، ونظر في عينيها بثقة:
- بل أنا متأكد من ذلك ، ولن أتركك أبداً.

كانت حياة تدرك أن أرتباطها بعادل يعني دخولها عالماً قد يكون محفوفاً بالمخاطر ، لإنها لم تتوقع أن تأتي العاصفة بهذه السرعة .

نكد الأيام

لم يمضِ شهر على زواجهما حتى وجدت بيتها محاصراً بمفرزة أمنية ، يفتشون كل زاوية يسالون عنه وكأنها تخفي كنزاً ثميناً . عادل ، الذي كان على دراية بالمخاطر المحدقة به ، تلقى تحذيراً في اللحظة الأخيرة ، فقرر الهرب دون أن يخبرها حفاظاً على سلامتها .

اتجه شمالاً إلى أربيل ، ثم عبر إلى حوض جبل قنديل في السليمانية بواسطة أدلاء حيث كان يجد مأوىً آمناً .

أما حياة ، فقد كانت الغصة تتكور في حلقها ، والغضب يعتصرها .

لم يكن غضباً على عادل ، بل على القدر الذي لم يمنحها حتى فرصة الاستمتاع بحياة زوجية طبيعية .

كان دعاؤها صادقاً يخرج من أعماق قلبها المرتجف :

"يارب ، لا تدعهم يمسكونه ويأخذونه مني .. بدونه ، لن أسعد يوماً" .

مرت الأيام ثقيلة ، وكانت كل طرقة باب تبث الرعب في قلبها . لم تعد حياة مجرد امرأة متزوجة ، بل أصبحت زوجة رجلٍ مطلوب أمنياً ، وهو ما جعل حياتها على المحك .

وصل عادل قرية بشتآشان في كردستان العراق ، حيث كان يقع المقر الرئيس للحزب الشيوعي العراقي . في مايو ١٩٨٣ ، تعرض المقر لهجوم مسلح دموي ، راح ضحيته العديد من الشهداء ، في واحد من أكثر المجازر مأساوية في تاريخ الحزب . كان هو من بين الجرحى ، أُصيب بأصابات بالغة ، لكن القدر كتب له النجاة ، تم نقله على وجه السرعة إلى مقرات الحزب الخلفية ، حيث تلقى الإسعافات الأولية وسط أوضاع صعبة وقلة الإمكانيات الطبية . تقرر نقله إلى تركيا لاستكمال علاجه ، رحلة لم تكن سهلة ، محفوفة بالمخاطر ، لكنها كانت فرصته الوحيدة للبقاء على قيد الحياة .

الرسالة

وصلت رسالة من عادل عن طريق صديق بعد غياب دام سبعة أشهر ، وكأنها هطلت عليها من السماء ، أحتضنتها بلهفة ، وقرأتها مرات ومرات ، وكأنها تروي عطش قلبها الذي أضناه الانتظار :

"حبيبتي حياة ، لقد أصابني فقدانك بحزن عميق ، ألا تدركين كم هو صعب أن أعيش ظروفاً فقدت فيها الوطن الذي أسكنه وأحبه وأفتخر به؟ كدت ان أخسر حياتي لأجله ولكن رعاية الله كتبت لي حياة اخرى . لقد الهمتِني الصبر ، وشددتِ من أزري ، كنت دائماً امرأة عالية النضج ، شامخة لا تقبل التهميش أو التحجيم ، شهية في كل حالاتها ، مختلفة عن كل من عرفت . أنت الحقيقة التي أدركها وأحبها . أدركت الطريق الذي سلكتُه ، رأيناه معاً وكان هذا قدرنا ، فلا تلومِني. قلتُ لكِ ذات مرة أنكِ استثنائية ، مختلفة في صبركِ وتأثيركِ عليَّ. ولازلتُ اتفاءل برقم الحافلة ٣٦ ، أتذكرين ؟ دخلتِ حياتي كفرس جامحة ، بخطوات واثقة ، فمددتِني بالحياة ، وجعلتِ لكل صباح نلتقي فيه رونقاً ، وكأن الشمس لا تشرق إلا من أجلنا . كان النضال والثورة من حولنا ، لكنهما لم يمنعاني من أن أغرق بكِ ، بل زدتُ توغلاً في حبك يوماً بعد يوم. أتصدقين ؟ لم أفكر يوماً في تكوين عائلة قبل لقائِكِ . ألا تدركين كم أخشى أن يمسكِ أي

شيءٍ بسببي أو أن تتألمي من دوني ؟ أليوم تتزاحم ألأفكار في رأسي وتتداخل حتى تكاد تنهكني . اسعفيني بقدومك ولا تتركيني مشدوهاً في غربة لا تكتمل حياتي إلا بكِ" .

كتبت له :

"أحببتك يا عادل كأن لا أحد لي بعدك. إياك أن تعتقد أنني أشعرك بالذنب ، فهذه حياة المناضلين. الحمد لله على سلامتك ، واعلم أننا سنواجه معاً ما تفرزه الحياة من أذى ، بحبٍ وعزيمة ، فإما أن ننتصر معاً أو نخسر كلانا . أنت نموذج للفارس الشرقي ، ذكرتني بالحافلة ... إنه القدر الذي جمعني بك. لا أنسى كيف رفعتَ رأسك ، وسددتَ تلك النظرة الحادة ، الصارمة ، ولكنها شهية رغم حدتها . أنتَ حاضرُ في كل الاوقات ، تشعرني دوماً أنك معي وحولي . كنتُ أناقش خياراتي معك لنقرر معاً ما يخص حياتنا ، ومع ذلك كان كل شيء صلبٍ في حياتي ينهار أمامك. لم تسمح أبداً لفتيل الغيرة أن يشتعل في داخلي ، كنت رجلاً واثقاً بنفسك ، وكان نضالك يشملني ، حتى أستطعت أن تفرّغ بعضاً من أكوام الحزن المتراكمة في أعماقي . أحتاجك الآن ... تحميني من حزني ، من خوفي . أتذكر أول مرة ، لمحتُ لكَ أنني أريدك رفيقاً وحبيباً وزوجاً؟ يحزنني خوفي من خسارتك ، وتعبي من محاولات السعي إليك. شيء ما في أعماقي يُصلي الى الله ، ويدعوه بشدة ، ويرجوه بقوة ، أن يحقق لي سعيي لألتحق بك .

كان السفر في ذلك الوقت شاقاً ، لكن صديق زوجها رتب لها وسيلة للانتقال الى مدينة أربيل ، وهي مكبلة بأفكار شتى ، تغمرها مشاعر متناقضة تلامس قلبها بشكٍ وقلق ، وأحياناً تمسها مشاعر الثقة والطمأنينة. واصلت رحلتها إلى تركيا في نهاية عام ١٩٨٤ ، حيث التقت بزوجها أخيراً ، متهالكة ، خائرة القوى من متاعب السفر المجهول .

حاولت عدم ألأكتراث للإرهاق حتى لا تفسد لحظة اللقاء ، لكنه لم يخفِ دهشته :

"لقد شختُ كثيراً ياحياة خلال هذه الشهور المؤلمة" ونظرت إليه بحنان وقالت: ومازال في داخلنا الكثير من ألأحزان ، لكنني أومن أن الزمن كفيل بإصلاحها" .

ثم أضافت بصوت يملؤه ألإيمان والتفاؤل : "وتذكر ياعادل ، أن الله لن ينسانا ، وسيضع لنا في قارعة الطريق يوماً ، سعادةً تنسينا كل ما يؤلم قلبينا.

ترحيل قرية عزيز (١٩٨٥م)

اصاب عزيز ذهول لمشهد الجرافات وهي تلتهم كل جميل في قريته ، طامسةً أحلى معالمها . همس إليه أحد زملائه قائلاً : "هذا تنفيذ لقرار القياده العليا بترحيل القرية إلى مكان أخر لدواعٍ أمنية". كتم حزنه على مضض ، وأعتصر قلبه ألمٌ لم يهدأ . بل لم يجد سبيلاً لتفسير ما يحدث وسط هول الصدمة ، فقد خسر أرضه وحلمه مرة اخرى. هذه المرة ، كانت وجهته مدينة السليمانية حيث يعيش أعمامه وأخواله . حاولت والدته أن تجبر خاطره ، فأقترحت أن تخطب له بنت أخيها ، لكنه كان قد حسم أمره؛ فقد كانت ميوله تتجه نحو أبنة عمته الهادئة ،التي أنهت دراستها المتوسطة لتوّها ، وكان يجد فيها شبهاً في الطول والملامح من الفتاة التي عشقها ذات يوم في مدينة الشطرة . جرت مراسم الخطوبة والزواج في أجواء مفرحة ، لعلها تضمد شيئاً من جرحه الدامي ، كان يأمل يعيش معها بحياة هانئة في قريته ، تلك القرية التي اصبحت ذكريات جميلة ، لن تعود ابدا .

كان عام ١٩٩١ عاماً مميزاً في كردستان ، حيث بدأت سحابة الدم تنقشع ببطء عن سمائها ، وتحسنت الأوضاع قليلا٥ بعد أنسحاب الجيش العراقي قسراً من جميع مناطق كردستان ، أصبح عمُّه شخصية بارزة

ومسؤولاً يُشار إليه بالبنان ، ولكن بعد سنتين لبى نداء ربه ، فكانت وفاته صدمة مؤثرة للعائلة . أما ، زوجته فقد كان جل اهتمامها ينصبّ على شؤون بيتها ، الذي تحلم به بعيداًعن السياسة ، وكانت تبتهل إلى الله بالدعاء أن يجعل مولودها البكر ذكراً ، وأن يكون مخاضها يسيراً ، بعدما تأكدت من حملها .

ورغم فرحتها المنتظرة ، كان يشغلها هاجس الاستقرار في سكن آمن، إذ لم تكن تطمئن للاضطرابات التي ماتزال تهدد المنطقة . لم يكن قلقها بلا مبرر ، فهو انعكاس للبيئة التي تربّت فيها بمدينة السليمانية ، خاصة بعد أن أجبرها زوجها على الانتقال للعيش قي مدينة أربيل ، مما زاد من مخاوفها تجاه المستقيل .

سكنَ مع عائلته في هذه المدينة ، وعُيّن مدير ناحية. لكن سرعان ما نشب خلاف بين القطبين الكرديين ، تصاعد الى صراع دموي على تقاسم السلطة والسيطرة على الموارد . اندلعت الحرب الأهلية في كردستان عام ١٩٩٤ وامتلأت القلوب بالحزن لفراق الأحبة وفقدانهم ، فيما سقط عدد كبير من القتلى والجرحى ، وأصبح العيش محفوفاً بالقلق وعدم الأمان، وصار التنقل بين المناطق في غاية الصعوبة .

بسطت حكومة السليمانية سيطرتها على مدينة أربيل ، وانتشرت السيطرات المجهولة في الشوارع ، مما دفعه إلى العودة مع عائلته إلى السليمانية بحثاً عن الأمان .

لكن الوضع لم يستقر طويلاً ، فسرعان ما استعادت حكومة أربيل سيطرتها على ألمدينة ، مما أجبره على العودة وحيداً إلى أربيل . لم تكن أخبار عائلته مُطمئنة ، وبعد بضعة شهور ، تمكن من إعادتهم إلى أربيل ، وبجهود مضنية ، استطاع إيجاد مكان آمن لهم في أحد أحيائها ، وسط واقع سياسي متقلب لا يتيح استقراراً طويل الأمد .

عزيز في أربيل (١٩٩٦م)

في ظهيرة أحد الأيام الملتهبة اندلعت معركة بالقرب من حيهم في مدينة أربيل ، وأمتدت إلى مداخل شوارع الحي . استخدمت في المعركة مختلف أنواع الأسلحة، ولجأ بعض المقاتلين إلى البنايات العالية ، مما أثار ذعر العائلات الساكنة ، ولم تجد ملجأ سوى رعاية الله. كان يردد بأسى :

"يا لقلة الحظ، كلما أردت الابتعاد عن الحرب ، وجدتُ نفسي في أتونها" لكن زوجته لم تسمح لهذه الأحداث بأن تعكر صفو فرحتهم بالقادم الجديد ، فأخبرته بأن الغبطة ملأت قلبها بولادة ابنهم البكر .

"هل فكرت في الاسم الذي ستطلقينه عليه؟ فان الله لبى دعاءك".

- اجابته بصوتها الوديع وكلماتها السلسة: "لقد قررتُ منذ وقتٍ سابق أن أحداً لن يسميه غيرك".

برغم ميله إلى السلام والهدوء ، كانت زوجته تتحدث عن العودة إلى السليمانية ، مسقط رأسها . لكن مع الوقت ، وبعد ولادتها ، بدأت تفكر في مغادرة المنطقة بالكامل ، وأوحت له بذلك حتى أصبح يفكر بالهجرة إلى الخارج طوال الوقت. وفعلاً ، نجح في مغادرة أربيل مع عائلته إلى تركيا عام ١٩٩٧ لأنها بلد قريب ليكون محطتهم الاولى التي لم تكن هدفه .

بعد مكوثهم في تركيا عامين على مضض ، حصلوا على قبول الهجرة إلى أستراليا عام ١٩٩٩. ورغم كل الصعوبات ، كان يشعر أن زوجته تحضّر عتابها له ، لكنه كان يموت في صدرها ، لأن المرأة دائماً تنهي ما يضجرها بانتصار الحب .

أخذت الغربة تأكل من نفس عزيز حتى أصبحت هشّة أمام جبروت المشاعر ، وبدأ يؤمن بقول جبران خليل جبران : "الأنسان لن يموت دفعة واحدة ، وإنما يموت بطريقة الأجزاء" . اليوم ، بدأ يفقد حلمه ، وبدت صور أحبته تتلاشى من ذاكرته ، ليؤكد ماقاله محمود درويش : "كونوا للرحيل أوفياء" . نسي ماضيه الجميل والخالص له ، وكأن الزمن يسلبه شيئاً فشيئاً .

في صباح أحد الأيام ، سألته زوجته ، وهي تحس يجفاف في حنجرتها ، وطعم الرماد في فمها ، وألم في مفاصلها. أخذ الفتور يطمس همتها' واغرورقت عيناها بالدموع ، وشدّ ت أعصابها حتى زاد حالها سوءًا :

"عزيز لقد ضاق صدري من الغربة".. قطب جبينه لصدمة السؤال، وابتسم ابتسامة قلقة ، وكأنه كان ينتظره لكنه لا يريد أن يضعف امامها نظر إليها بعينين مندهشتين ، واحسّ من بريق عينيها ، الذي بدأ يأفل بعد أن خمدت زوبعة المشاعر ، بما يعتمر داخلها من خيبة. كان لابد أن يأخذ قراراً ، فتذكر كلمات الشاعر التشيلي بابلو نيرودا:"يموت ببطء ...من لا يغّير وجهته أو لايركب المخاطر ليحقق حلمه" .

– رد عليها بود : "الأيام التي تكسرنا هي التي تصنعنا" كان يحاول أن لا يحرمها من الأمل ، فقد يكون هذا كل ما يملكانه.

–"طيب ماذا تقترحين الان ؟"

– "أنا مؤمنة بالله ، فله طرق عدة ليجبر خواطرنا دون توقعنا".

–" نعم ، كل مشقة ذهبت ، وبقي حلو ثمرها يغذينا" ، فهم مرادها٬ تغيير المكان قد يجلب الفَلاح . وكما يقول ألبرت أنشتاين : "في قلب كل صعوبة تكمن إمكانية". سافر على حين غرة إلى بيت أخته في ألمانيا ، وبقي هناك أيّاماً على مضض ، لم يكترث للعيش في تلك البلاد، حتى سافر إلى بريطانيا حاملاً معه الجواز الأسترالي إلى جانب الجواز العراقي.

حياة في لندن (٢٠٠٤ م)

من هنا بدأت حكاية حياة في هذه المدينة (لندن) ، وكأنها لم تتخيل يوماً أن تجد ما يسعدها . هنا كسرت الصمت ، وكأنها غادرت أنين الحزن، وتناثرت أوراقه في رفوف النسيان . كان لقاؤها بأولادها محطّة فارقة ؛ مناضل على وشك الحصول على الماجستير ، ودنيا سجلت في دورة اللغة الانكليزية بعد قبولها في الدراسات العليا .

لطالما كانت لندن حلم حياة ، وجاهدت كي يكمل أبنها وأبنتها تعليمهما فيها ، برغم عدم رغبة زوجها عادل ، الذي كان يفضّل العيش في الدول الشرقية التي تعثّرت فيها حياتهم وعُسرت معيشتهم ، وكانت كلها كفاحاً. لكن لندن مدينة جاذبة ، ليس للكبار فحسب ، بل للشباب أيضاً ، حيث يستهويهم الفن والادب البريطاني ، من وليام شكسبير إلى جيمي هيندركس وجي كي رولينج .

لم تستقر حالهم كثيراً ، فقد كان مناضل يدرس في جامعة برمنكهام التي تبعد عن مدينة لندن ١٩١ كيلو متراً ، ودنيا في جامعة شيفيلد التي تبعد عن مدينة لندن ١٠٧ كيلو متراً .

أما حياة ، فأتاحت لها إجادة اللغة الإنكليزية أن تنسجم مع الحياة الجديدة ، باحثة عن عمل يناسب تخصصها وتجربتها السابقة في تركيا . في

المقابل ، بدا عادل متثاقلاً ، برغم أن تخصصه كان مطلوباً ومقبولاً ، وكأن الحياة نزفت منه كل اندفاعه وأطفأت وهج مستقبله .

تغيرت لديه كثير من المفاهيم والمبادئ؛ كان يظن أن الحكام المستبدين هم سبب الفقر ، وأن الديمقراطية هي الحل ، لكنه استدرك لاحقاً أن الديمقراطية قد تكون وهماً ، وأن الحكم الاستبدادي قد يكون مخرجاً ليصل إلى قناعة أخرى: "لا يصلح حال الشعوب إلا بتدبير اقتصادي ممنهج" .

وأيقن أن هناك عوائل غنية غيّرت تاريخ كثير من البلدان ، ومنها الثورة الإنكليزية .

هذا الرجل الخمسيني ، الذي كان خطيباً مفوهاً ، شديد التأثير والاقناع ، وثوريا في شبابه ، بات عاجزاً عن التأثير حتى في أبنائه ، وأحياناً في زوجته. كان يتخيل أن هذا البلد يغرق في الفسوق بلا حدود ، وكثيراً ما يدخل في جدالات عقيمة مع حياة ، التي تحثّه على أن يواكب التغييرات معهم. لكنه ، بدلاً من ذلك ، غاص على الأحاديث الدينية ، وجعل منها نهجاً لحياته ، ما جعله أكثر صرامة. أما حياة ، فقد اندمجت سريعاً في المجتمع الجديد ، وانشغلت بعملها ، وكسبت رضا من حولها. حاولت نقل دراسة دنيا إلى جامعة لندن برغم ارتفاع الأقساط ، لكنها لم تنسَ عادلاً .

أتعلم يا عادل ؟ كنتُ ولاأزال أحبك . أخشى أن أقترف ذنباً تجاهك ، فيعاقبني الله بحرماني منك . لم أنسَكْ يا حبيبي ، فإن لم تلتقِ

روحي بروحك في الأرض ، فهناك في السماء . في منهجنا ، نبقى عاشقين لا يجوز الفراق . لننقل هذا لإبنائنا ، فلا تغضب منهما ومن تصرفاتهما غير المقصودة ، إنهما يعيشان في مجتمع وزمن مختلفين عما عشناه . نحن بحاجة إلى ابتسامتك ، الآن حياتنا لا تكون بخير دونها. أنت جاهدت ، وأثمر جهادك ، فلماذا لا تشغل نفسك بتدوين تجربتك في الحياة ؟

– أصغى لها بتعجب ، وأجابها :

– وهل ستقرأين ما أكتب ؟

أجابته بجدية :

– أعدك بذلك ، وسأنتظره بفارغ الصبر .

– وهل أنا جدير بذلك ؟

– أنا مؤمنة بك وبكلماتك الرائِعة ، والاستعارات المدهشة منذ لقائنا الأول في حافلة ٣٦ .

أبتهج عادل ، وقهقه بصوت عالٍ ، إذ لم يسمع ذكر الحافلة ٣٦ منذ زمن بعيد . كأنها اكتشفت الحل لانكساره .

وماذا أكتب ؟

– اكتب رواية : ألحافلة ٣٦ .

– لا ، سأكتب أنتِ كل أشيائي الجميلة .

فرحت كثيراً ووافقته الرأي.

عزيز في لندن (٢٠٠٦م)

حلت رحلة عزيز في مدينة مانشستر ، وهي مدينة قديمة وكبيرة ، تكتظ شوارعها وطرقها بالمارة ، ويتعرض عابر الطريق لوابل من أصوات الفرامل وأبواق السيارات . كثرت فيها المشاكل لاحتضانها نوادي القمار ومضامير سباق الخيل ، ويجتمع فيها المتعاطون للمخدرات والمتشردون والعاهرات ، علاوة على انتشار العنصرية ، التي لمسها حتى من جيرانه. كان الإسلام غير مرحب به ، وواجه أموراً لم يستسغها وخشي على تربية أولاده .

كان يرى شباباً بمظاهر مخنثة وانيقة: حلاقة شعر منمقة ، وجينزاً لصيقاً ، ونظارات ، وقمصاناً مفتوحة رُسمت عليها شخصيات توحي بالمجون والانحراف . عندما تضيق الأرزاق ويتبدد الأمل ، يبرر الناس لأنفسهم كل عمل سيء بدعوى الضرورة . مكث سنه ونصف على مضض ، وبدا عصبياً وقلقاً أكثر من المعتاد ، وكان ضباب مستقبله يثقل عليه . عندها ، أنتقل إلى مدينة لندن بتشجيع من أحد اصدقائِه .

كلما قطع ميلاً في أرض الله كان قلبه يتسع ، ويمد الله بصره إلى آفاق لم تألفها عيناه ، ويمتلئ صدره بهواء لم يتنفس مثله من قبل. كان

تواقاً لرؤية لندن ، تلك المدينة التي كانت تروى عنها الروايات ، وتسير باخبارها الركبان .

لندن مدينة زاخرة ، أسواقها قائِمة ، وتجارتها رائِجة ، وأرضها دائِمة الخضرة ، وهواؤها معتدل ، ومبانيها أنيقة ، وأهلها من أصحاب الأموال العظيمة ، ينتهزون فرص الزمان ساعة بعد ساعة . يمكن ان يحلم بها ناس من يرغبون في السكن في المدن الكبيرة .

فهي مدينة حالمة هادئِة شتاءً ، مبتهجة وفرحة صيفاً يختفي فيها فصل الخريف . من يزورها أوّل مرة قد يتوقع أن يتيه نظره بين شاهقاتها ، ويحذر من عجرفة سكانها الأنكليز ، ولكنه يتفاجئ بأن سكان هذه المدينة يرفضون بناء الشاهقات حفاظاً على تراثها القديم ، مما يمنح الناظر رؤية أوسع للمناظر الجميلة التي تهدئ جوانحه ويشيح ببصره الى أغلب الاتجاهات .

تحتضن هذه المدينه جميع الجنسيات ، ونادراً مايلتقي المرء بسكانها الاصليين. في مركزها ، تجد أناساً ذوي خلاعة ، لكن في الوقت نفسه ، يتناهى إلى مسامعك صوت القرآن والذكر الجميل. ورغم الغلاء ، فهي مدينة كريمة لم يجُع فيها أحد ، وتتوفر فيها مجالات المعيشة لمن يبحث عنها.

غير أن هذا الأمر يثير حنق سكانها الأصليين ، الذين يرفضون وجود لاجئين في بلدهم ، وقد وقعت مصادمات في بعض المدن ، مثل

مانشستر ، عجزت الشرطة عن السيطرة عليها. وباح عزيز متألماً عن رأيه في بلاد الغرب ، عندما تعيش في بلد مثل إنكلترا ، تكتشف أن أمتنا ليست قاصرة ، بل نحن من جعلنا أنفسنا عبئاً على البشرية ، ومن عجائب الدنيا أن من يهتمون بالرفق بالحيوان ، هم أنفسهم من يصنعون أعتى الأسلحة لقتل البشر. وأغلب المجتمع هنا كأنهم يتبعون فلسفة سبينوزا :

"تمتع بما خلقه الله لك ، ولا تغمر نفسك في أجواء صارمة لعبادته".

أمنية لم تتحقق (٢٠١٠م)

كان الحفاظ على هويتهم العراقية وعلى عادات موطنهم السابق على الأقل داخل البيت ، أمراً مقدساً لدى الأب والأم ، وكانا متمسكين بذلك بتزمت . حرص عزيز على ديمومة علاقات الود بعدد غير قليل من أبناء وطنه من مختلف المدن العراقية. كل يوم كان يؤكد حضوره في هذا البلد وتتوسع مداركه ؛ تقبل أموراً ... وأستنكر أموراً أكثر . زادت همته وشغفه بالحياة ، فكر في زيادة دخله المادي ، وكان لم يجد في طريقه غير سيد روبرت ، رجل من أصول بريطانية ، يحمل الجنسية البريطانية عن أب وجد ، وكان مقارباً له في العمر ، إلا أن عزيزاً كان أكثر حيوية وأسرع حركة .

أشترك معه في تأجير كراج لبيع السيارات السريع ، التابع لشركة معروفة ، وسارت الأمور بشكل مُرضٍ ، حتى كسب ثقة شريكه ، لدرجة أنه صار يوكله بمعظم إجراءت البيع والشراء دون الرجوع إليه .

كان شريكه شخصاً مَلُولاً ، يفضل البيع السريع ، على عكس عزيز ، الذي يرغب في التريث لتحقيق سعر أفضل . هنا بدأ تضجر سيد روبرت منه ، وذات مرة ناداه بسخرية قائِلاً : "بالبكي" (وتعني عديم الأصل) . رفع عزيز حاجبيه في استغراب ، وسار في باحة الكراج بغضب

هادر ، ومع مرور ثوانٍ ، كان الحقد يتعاظم في قلبه من هول ما سمعه. ثم استعاد رباطة جأشه على مضض ، وقال بصوت حاول أن يجعله ثابتاً غير متهدج : "أي رجل لعين أنت ؟" ثم غادر الكراج .

وصل إلى المنزل وعلامات الغضب بادية على وجهه ، فأنكرت زوجته حضوره غير المعتاد بعينين متسعتين مندهشتين ، لم تعهده بهذه الحالة من قبل. أقترب وجهها من وجههِ ، كانت لها أبتسامة متعاطِفة ، ومسحت على شعره بحنان . أخبرها بما سمع ، تظاهرت بعدم الاكتراث ، وقالت : " لم نعد نستغرب هذه المشاهد التي كنا نراها في مدينة مانشستر، ولكن هنا في مدينة لندن نادرة" . وعزت الأمر إلى أن الإنكليز الأصليين يخشون المنافسة على الأعمال وفرص العيش ، ويحملون بغضاً دفيناً تجاه اللاجئين .

لكن عزيز وقتها كان منشغلاً بشأن آخر ، فقد تراءى له أن تصرف شريكه لم يكن مجرد أهانة ، بل محاولة لأنكار مواطنته وأنتمائه لهذا البلد ، وكان مستقبله فيه بات مهدداً تجاه اللاجئين . والحق يُقال ، كما كان عزيز مُحقاً في ثورته ، فمن يُطفيء النار التي أضرمت في نفسه ؟ جاءه طيف أضاء هذا المشهد ؛ إنها العلياء والكرامة التي لم تجففها السنون العجاف تجعله غاضباً دائماً ، عندما تتجسد أمام عينيه صورة الوطن؛ الهوية الوحيدة التي لم يفقدها طيلة عمره أبداً .

في اليوم التالي ، توجّه إلى عمله وهو شديد الحنق ، يغلي انتقاماً في داخله ، وكأنه نادم لأنه لم يُؤدِّب هذا "الخنزير " على تطاوله عليه. وصل إلى الكراج ، لاحقه ريح كانون الباردة ، ووقف خارج المدخل ، أدخل يده في جيبه ، وأخرج علبة السجائِر ، كاد يلتهم إحداها وكأنه لم يُدخّن منذ شهر .

جلس في كرسيه ، وأشار للعامل ليحضر له قهوته ، ثم رد على بعض المكالمات ، وإذا بشريكه يدخل ، ويلقي بثقله على كرسيه الواسع ، حتى احتضن جسمه الثقيل ، ملقياً تحية استعلاء على عزيز ، فردها بأقتضاب . خرج عزيز مع زبون في جوله على مجمل السيارات ، وحينها أسْمعه شريكه عبارة ساخرة ، مليئة بالغل. كتمها عزيز حتى ينتهي من الزبون .

عاد عزيز ، وأحسّ بسخونة زفيره تلهب مناخِره ، كل أعصابه تهيّجت وتنذر بأمر جلل ، وأستنفرت عضلاته ، فدخل على شريكه ، وسددّ له ضربة بقبضة يده بكل ثقله ، أشاح شريكه بوجهه إلى الجهة الأخرى ، فسقطت الضربة على كتفه الأيسر ، فانقلب على إثرها إلى الخلف مع كرسيه. انحنى عليه عزيز بضربه ثانية ، حتى شعر أن يده شُلَّت بعد أن أمسك بها عامل الخدمة القريب منهما .

من هنا بدأت أمور عزيز تسوء على نحو لم يكن يرغب فيه ، وتدخلت الشركة بأجراءاتها المطولة. كان هذا الحادث فصلاً مؤلماً في

حياته ، دفع ثمنه غالياً. لكنه تعلم درساً مما مضى ، وغيّر من أسلوب حياته حتى تجاوز محنته .

بدأ أولاده يشقون طريقهم ، ويركزون على بيع وشراء العقارات ، فتنفس الصعداء حينها ، لكن نَكَد الأيام لم يهدّئ خاطره . كان مرض زوجته قد أدخل في نفسه ضجراً دائِماً ، فكان كلما نظر إليها ، رأى سلسلة السنوات الغابرة في عينيها ، تلك المرأة الصابرة المؤمنة ، والسند الثابت ، التي لم تهنأ مع أولادها ولم تشاركهم أفراحهم .

رحلة إلى المغرب (٢٠١٦)

سافر عزيز ألى مدينة أغادير في المغرب يرافقه اثنين من أصدقائه. تعرضت هذه المدينة لزلزال عام ١٩٦٠ أفقدها جميع معالمها التاريخية ، وأعيد بناؤها من جديد. وهي مدينة سياحية بامتياز ، ذات طبيعة مشمسة كما جزر المالديف وجزر الكاريبي وجزيرة موريس. يقصدها أغلب سياح المغرب لممارسة ركوب الأمواج ، وأن سكانها ودودون ويتقبلون جميع الثقافات .

ذات مرة ، كان مسترخيا على كنبة في مقهى يطل من الأعلى على البحر ، يراقب الطريق العام المحاذي للشاطئ . المكان هادئ محاط بأشجار البلوط ، وضوء النهار جميل ، عذب ، يكاد يكون خيالياً. فجأة لمح شابة من بعيد تتغنج في مشيتها .

(يا إلهي !) ، وفي اللحظة استحضر فتاته "الشطرية " ، كأنها نسخة منها. تشربت صورتها بومضة إلى ذاكرته البعيدة ، فحاول أن يخرج من دوامة ذكرياته ، لكنه نهض بعفوية وتبعها بهدوء ، وهو يتمتم مع نفسه:" أهيَ هيَ ، أم شبيهتها ؟ سبحانك ربي ، هل هي هدية شفق أم غيمة نكد؟" .

نور العين ، شابة عيناء في حوالي الثلاثين من عمرها ، تسكن مدينة الخميسات ، التي تبعد عن الرباط العاصمة ٧٠ كيلو متراً ، وتتبعها إدارياً. مدينة حديثة النشأة ، بدأ تعميرها على يد الإدارة الاستعمارية الفرنسية ، وهي عاصمة زمور الأمازيغية ، حيث يتحدث أغلب سكانها الأمازيغية ، اللغة الاصلية لشمال إفريقيا .

كانت ولادتها مميزة بالنسبة لجدتها التي لم ترزق إلا بأبنةً واحدة هي والدتها ، ونشأت بينهما ألفة كبيرة .

وعندما دخلت المرحلة الابتدائية ، كانت متفوقة عكس توقعات والدتها ، التي كانت ترى فيها فتاة هادئة لا تتحدث كثيراً . تعمل نور العين في مدينة الرباط ، وفي صيف هذا العام ، أخذت عطلة وقررت السفر إلى أغادير لأول مرة ، لزيارة أختها التي تعمل مدربة لياقة بدنية هناك ، وكذلك للاستمتاع بالأجواء السياحية ، بعد سنة كاملة من العمل دون كلل أو ملل .

بعد وصولها بيوم واحد ، خرجت وحدها لأن أختها كانت مشغولةً بعملها. كانت ترتدي عباءة سوداء ويبدو طولها مميزاً مقارنة ببنات مدينة أغادير ، حيث يسود قصر القامه . وهي تسير في شارع الحسن الثاني ، مما أثار انتباه رجل أنيق في نهاية العقد الخامس ، (عزيز) ، الذي سار خلفها. فاستعجل الخطى حتى سبقها بخطوة ، وبالتفاته بسيطة ، لمحها جيداء كحلاء العينين ، تشبه عيون بقر الكابوي .

فاجأها دون استئذان قائلاً ، بابتسامة ممزوجة بضحكة رقيقة :

"أنت تبدين أطول فتاة في الشارع !

تلعثمت أول الأمر لهول المفاجأة ، ثم أردف بسؤال بدا منه أنه غير ذي خبرة :

– أنت من أين؟

– انا مغربية ، من أهل البلد.

– وأنت؟

– أنا من العراق.

ما إن سمعت نور العين بكلمة "العراق" حتى بدا كأن مفعول سحر حُقن في وجدانها ، وتغيرت ملامحها ، وأصبحت في حالة انشراح ، لأن هذا البلد يعني لها الثقافة والتاريخ والأصالة .

كان بالنسبة لها واحة عذبة ، أطمأنت لها لتستريح مؤقتاً من دنياها المليئة بالشجن .

أنت فعلاً من العراق ؟!

– أجابها عزيز :

– العراق هويتي التي لم تُنتزع مني ، ثم بادرها بالسؤال ، بعدما شعر ؟ انها تطمئن له :

– هل يمكنني أن أدعوك إلى أحد المطاعم القريبة ؟ (كان في داخله يُحدّث نفسه:" أخشى أن أُطبّق مقولة : من الأفضل أن يكون لي في كل ميناء فتاة".

استلم إشارة الرضا منها بتغنج ، فدخلا أول مطعم صادفهما ، جلسا على مقعدين جلديين متقابلين ، وكان المكان حميمياً متناقضاً مع الجلبة التي تعمّ المدينة بأكملها. في كل طاولة من طاولات المطعم وُضعت لوحة رقمية تتيح للزبائن الاطلاع على قائمة الماكولات .

أخذت نور العين تتفحص القائمة ، ثم طلبت قهوة كابتشينو وسندويتش ، بينما طلب عزيز قهوة وطبق رقائق البطاطا المقلية .

الإختبار

كانت نور العين فتاة ذكية ، واثقة من نفسها ، تعتز بكبريائها ، أما عزيز فكان شخصاً جدياً واسع الخبرة والثقافة والمعرفة ، لكنه لم يتقن العربية بالشكل الذي يعبر عما يختلج في داخله أحياناً ، مما يجعله يختصر الحديث بجرأة محببة تُقنع من يستمع إليه .

– ما رأيك بالسعادة ؟ قالت نور العين ، وهي تبعد خصلات شعرها عن عينيها الواسعتين .

– وجدت في الغرب من يوفّر السعادة كمنجز ، تماماً مثل العلم والتكنولوجيا ، ولكنهما يحتاجان إلى الأخلاق .

– والادب والحب والجمال ؟.

– انها تمنح عزاءً نفسياً مؤقتاً ، لكنها ليست السعادة الحقيقية .

– والفن ؟ ليس لدي اهتمام به ، لإنني أعرف انه استكمال لنقص الطبيعة ، كما يقول أرثر شوبنهاور .

– أعتقد ذلك . كان جواب عزيز مختصراً ليتخلص من الإحراج .

– وكيف ينظر أهل الغرب أإلى الدين ؟

– الدين عندهم يشبه الاساطير المقدسة ، لما فيه من معجزات ، رغم إنها لم تتحقق في عصرنا .

الله للجميع ، وليس حكراً على فئة محددة . لكنهم يرونه قضية شخصية ، لا يمكن أن يتحول إلى وسيلة للسيطرة على الناس ، أو تبرير فساد دون السعي إلى تحسين المجتمع. وإذا خُلط بالدوافع الجماعية ، فإنه قد يفسد الجميع .

– هل يمكننا اللحاق بهذه الدول ؟

– أجاب عزيز بحنق :

سبب معاناتنا هو التبعية للتراث ، بمعزل عن الواقع ، بينما في الغرب يُقدَّر المثقف مدى معارضته للنظام ، أما في عالمنا الثالث فيُقدَّر على مدى اصطفافه معه. العرب بحاجة إلى ثورة يتحررون بها من التاريخ والقيود البالية .

– قاطعته بذكاء ، وهي تستذكر مقولة طه حسين : "كل الأمم والشعوب تتطلع إلى الحرية والتسامح والسلام إلا بني العرب".

استمتعْ في كل دقيقة من حياتك ، فأنت لا تعلم ما يخبئه لك المستقبل.

– أومأ موافقاً ، ثم قال :

نعم ، فانأ أبحث عن شخص واحد على الأقل أذهب إليه عندما لا أعلم أين أذهب ، كما يقول فرانز كافكا .

لاحظ وهجاً في ملامحها. في تلك اللحظة ، شعرت بصداع خفيف ينبعث من صدغيها ، فأغمضت عينيها هنيهة ، وتنفست بعمق لتتخلص من الإحراج ، محاولة استبعاد ذكرياتها. نظرت إلى ساعتها ، ثم ردّت عليه:

– سوف نلتقي غداً .

فاجأها بدعوته إلى شقته القريبة ، فبهتت من عرضه ، وأسدلت نور العين رموشها وصمتت صمتاً غامضاً لفترة وجيزة . عاد الصفاء إلى عينيها وهي تنظر إليه مستاءة وقد تورّد خداها ، ثم قالت بلباقة ، كما لو أنها أرادت أن تستفزه :

– هل هذا ديدنك كلما تعرفت على فتاة ؟

أغاضه سوء تخمينها ، فظهرت عليه علامات الدهشة. قبل أن يتمكن من الاعتذار ، رنّ هاتفها ، وكان المتصل أختها. استأذنت وانصرفت ، بعد أن اتفقا على موعد .

اللحظات الفاصلة

سبقها عزيز إلى المطعم نفسه مساءً ، وهو ينتظر بصبر نافذ . تذكر، وكأنه يتشدق ببيت الشاعر مهدي الجواهري : "إني لم أعش المرأة إلا في الخمسين" وها هو الآن في الخمسين ، متيقناً أن السعادة لا تأتي إليه ، بل عليه أن يبحث عنها . كثير من الناس لديهم شريك ، لكن قليلاً منهم يملكون شريك الروح .

جلست أمامه وقلبها ينبض بسرعة ، تتفحص عزيز عن قرب. كان يرتدي سروال جينز داكن اللون ، وقميصاً بنياً مجعداً ، وحذاء قصير العنق ، عيناه الصافيتان ، المطمئنتان ، كانتا محاطتين بهالة سوداء رسمها الزمن. نظر إليها بعينين شرهتين ، فرأى أنها ترتدي سروالاً غير لصيق ، وسترة سوداء يظهر تحتها قميص وردي فاتح .

رفع عزيز ياقة قميصه وحرك كتفيه ، معبراً عن سعادته وأعجابه ، غير مكترث بما قالته البارحة . "أنا لا أجامل عندما يتصاهر القلب مع الروح ، و يشيران لي في هذه اللحظة بهمس". قاطعته قائِلةً ببرم :"كأنك متحفز لهذا اللقاء سلفاً ، وأشعر أنك دخلت منطقة ملغّمة. هناك فرق بين الإعجاب والحب"

– وما هو ؟

– الإعجاب هو أن تعجب بزهرة فتقطفها ، أما الحب فهو أن تسقيها يومياً .

عاد عن تجهمه ، وكأن شيئاً ما كان يقلقه ، وهو يخاطب نفسه : "اللحظات الفاصلة التي تحس فيها بالسعادة... اتخذ قرارك دون تردد" .

– اود أن أعرف عنكِ أكثر.

– ابتسمت وقالت : اسمع يا عزيز ، طريق الله هو الطريق العام ، أما الطريق إلى الله فيتعدد بعدد أنفاس الخلائِق .

– تردد لحظة ، ثم قال متحسساً فارق العمر بينهما :

أخشى أن يكون فارق السن بيني وبينك مشكلة...هل هو كذلك؟.

- ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

ليست هناك مشكلة ، قد تملك عقلاً تنزل به إلي ، وأنا أملك قلباً أصعد به إليك . ثم أضافت مبتسمة . كما تقول زوجة شارلي شابلن (سأتزوجك لتعلمني كيف أنضج ، وأعلمك كيف تبقى شاباً) .

– نظر إليها عزيز بتمعن وقال : أنا أخشى من الحب ، لئِلا ينكسر قلبي مرة أخرى . ردت عليه بحكمة .

– لاتخشَ من الحب, فكل تربة لها بذرتها ، بعضها ينبت الشوك والصريم، وأخرى تنبت الورد والزهر . والرجل كذلك ، ليس مجرد بدلة وشهادات ، بل أنسان وأصل . الحب ليس عيباً وليس ذنباً .

فاجأته بسؤال مباشر . هل مررت بتجربة حب لم تسطعْ نسيانها ؟

أجابها بصوت هادئ :

- نعم

أشاحت بنظرها بعيداً ، وقد غمرها قلق عميق ، وأخذت تحك أجفانها متنهدة (أخشى أن لايجلب لي هذا الشخص إلا المشاكل) . ثم سألته :

– ولماذا لم تسطعْ نسيانها ؟

- أجاب بعد لحظة صمت ، لأنها جعلتني سعيداً ذات يوم . كانت امرأة مثقفة ، واسعة المعارف . والمثقف الحقيقي هو من يقربك إلى الإيجابيات ، وليس مجرد شخص يخبرك عن موسيقى بتهوفن أو شعر المتنبي ، فهذا مجرد شخص مكتظ بمعلومات . أنا أنسان إيجابي ، وأؤمن بمقولة الكاتب البريطاني جيمس آلان (كما يفكر إلانسان ، يكون) ، زرت هذا البلد لأحقق سعادتي ، لإنها قراري .
- نظرت إليه بإعجاب وقالت ، لديك ثقة كبيرة بنفسك .
- أجاب عزيز بثقة ، أكيد .

اطمأنت نور العين إلى عزيز ، ووجدت فيه أنساناً يدرك الحياة ، ويعرف ماذا يريد ، ويذهب إلى مراده مباشرة دون غموض. أدركت أنه من المؤلم أن تسمع أغنية جميلة لكنك لا تملك شخصاً تهديها إليه ، أو أن ترهقك الأيام فلا تجد كتفاً تسند رأسك عليه ، أو أن تخلد إلى النوم دون ان تسمع من يقول لك ، (تصبح على خير).

كانت تلك رسالة واضحة ، تسلمها عزيز على الفور وهو في فضاء تأثيرها. نظرت إلى ساعتها وقالت :

– أنا على موعد مع شقيقتي سنلتقي غداً .

– رد عليها وكأنه لا يريد مفارقتها .

– تصحبك السلامة .

التقت نور العين بعزيز في اليوم التالي ، وهي تحمل في جعبتها سؤالاً مهماً ، أرادت أن تعرف عنه أكثر.

- هل لديك عائلة ؟

وضع عزيز مرفقيه على الطاولة ، وشبك يديه تحت ذقنه . بدا على ملامحه التردد ، فقد دوخّه السؤال .

- نعم ، زوجتي كانت وماتزال مصدر إلهامي في الحياة ، ورافقتني في الضراء والسراء. لكنها في الفترة الأخيرة تعاني من قصور في كفاءة القلب, وكادت تفقد القدرة على الكلام في احدى أزماتها ، لكن الله منحها الصحة مرة أخرى . لم نبخل عليها أنا وأولادي بأي شيء من العناية . لديها ممرضة تزورها صباحاً ومساءً .

الحيرة

شعرت نور العين بحيرةٍ تتسلل إلى قلبها . بين إعجابها بعزيز وظروفه العائِلية القاهرة ، وجدت نفسها في مأزق عاطفي معقد .

لكن رغم ذلك ، بدأت علاقتهما تتوثق بهدوء . كلاهما كان منجذباً إلى الآخر ، وما بينهما تجاوز الصداقة ، بل أصبح صدفة ترسخت في قلب عزيز وأصبحت تراوده في جميع اوقاته. لم ينوِ أن يحبها ، لكنه وقع في حبها سهواً حتى اصبح عشقاً .

كتب لها ذات مرة "هل رآكِ أحدُ كما رأيتك أنا ؟ رأيتكِ بعيني فعشقتكِ ، ولامست روحي فأدمنتكِ . كم اشتهيت أن أحدثكِ دون تردد، وأخبرك أني أحترق شوقاً للكِ ، وأقلق بأن يزعجك اشتياقي" .

في أحد لقاءاتهما ، حضرت شقيقتها المتزوجة ، شابة لبيبة ، بنبرة فضولية .

كيف تنظر إلى المرأة؟

- أجاب بثقة "المرأة ليست عاراً ، بل هي شرف وفخر ... واستمرت في الحديث معه.

تأكدت الأخت من صدق مشاعره ، فشجعتها على المضي قدماً ، واتفقوا على أن يزور عزيز أهلها رسمياً .

بعد ما تيقنت من صدق مشاعر عزيز ، واتفقوا على ان يزور اهلها.

التقيا لاحقاً ، وكان عزيز يراقب وجه نور العين ، الذي بدا مشرقاً ، يشع سعادة ودفئاً . لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤالها .

– ها نور العين ؟ يبدو أنكِ اخبرتِ عائلتكِ وشجعوكِ على مشروعنا .

– ابتسمت وقالت ، كما تقول ، عزيز ، قالوا لي ، ما دمت واثقةً منه ، فنحن على استعداد لاستقباله .

كان لقاؤه بأهلها لقاءً ودوداً ، وجدهم متفهمين لوضعه ، بدا وجه نور العين أكثر أشراقاً ، وعيناها تسطعان فرحاً وزهواً. سارت الامور على خير ما يرام . وعندما سألها عن مهرها ، جاء ردها مفاجئاً له .

– أريد أن تحقق لي حلمي.

– وما هو حلمك يا عزيزتي ؟

– أن أزور مدينة بغداد ومدينة كربلاء . نظر إليها باندهاش وسألها .

- وما تعلقك بهما ؟

- لدينا طقوس سنوية لزيارة مولانا إدريس المدفون في سوسة . إنه من نسل الإمام علي ، وأتأمل هناك بخشوع أن يمنحني الله زيارة مدينة كربلاء والنجف . أما بغداد ، فقرأت عنها كثيراً ... إنها عبق التاريخ.

- ابتسم عزيز وهو يشعر بالسعادة ، أعدكِ أن أحقق لك هذا الحلم ، فأنا أيضاً متعطش لتلك الديار ، وارغب في زيارة هذه المدن المقدسة. وسأهديك ما يناسب شبابكِ.

انتهت مدة سفره بعد أن تخلف عن أصدقائِه بمدة ، غادر المغرب على موعد العوده لها. تحلّت نورالعين بصبر المؤمنات المخلصات ، تنتظر عودته وفي قلبها يقين بأنه سيكون لها.

الحلم المفقود

تقدم عزيز بطلب الحصول على جواز سفر بريطاني ، وكان ملزماً ، وفقًّاً للقانون البريطاني ، بالاحتفاظ بجوازين فقط . فتنازل عن جوازه الأسترالي ، متمسكاً بجنسيته العراقية التي كان يعتز بها أشد الأعتزاز . لكن ما حدث لم يكن في الحسبان ، إذ سافر خارج بريطانيا مستخدماً جوازه الأسترالي ، وهو خطأ استُغل ضده ، مما أدى إلى تأخير منحه الجواز البريطاني لفترة غير معلومة ، الأمر الذي أثار استياء وحزن نور العين في المغرب. بدا وكأن الزمن والرغبة غير حليفين . اصبحت نور العين تحت وطأة اللوم من أهلها وصديقاتها ، وتحجرت مشاعرها شيئاً فشيئاً ، حتى بدأت تفقد الأمل ، وهي تندب حظها العاثر وتردد "كيف يقولون ، يمكن أن تكون السعادة التي تهديها لمن تحب هي السعادة التي تدوم" .

اما عزيز ، فقد كان أشد ألماً وأكثر حزناً ... يردد في داخله : "من لم تشرق الحياة له في شبابه ، لم تغرب على منالـه في آخر عمره". كتم مشاعره العميقة ، وبقي مكسوراً أمام تجربة ألقاها القدر في طريقه ، تاركاً في قلبه ندبة لا تندمل .

انها الأقدار (٢٠١٨)

دعا عزيز صديقه ربيع من العراق ، ليشاركه فطور صباح يوم عيد الأضحى في الحي المجاور لهم ليفطرا معاً. بعد الإفطار ، كانا يخططان للذهاب إلى صلاة العيد في المسجد القريب من منزل صديقه ، وبينما كانا يتجاذبان الحديث ، أخبره ربيع عن معارفه من العراق ، الرجل من بغداد متزوج من امرأة من الشطرة ، يقيم في الجوار . أرتبك عزيز عند سماعه ذلك الاسم .

– من الشطرة ؟

– نعم ، ومرت عليهم ظروف قاسية حتى استقروا في لندن. غرق عزيز في دوامة من التساؤلات التي لم يجرؤ على طرحها. ثم قال عزيز :

– تعلم يا صديقي ، أنني أعتدت أن أدعو جميع معارفنا في اليوم الثالث من العيد إلى بيتنا . أتمنى أن يكونا ضمن المدعوين هذا العام .

كانت حياة ، رغم أنها فقدت بريقها ، لاتزال تحتفظ بشكيمتها وكأنها تعاند الزمن . أما زوجها ، بدا مستسلماً له ، إذ كان المرض ينهش جسده ، وهو على أعتاب السبعين من العمر. وعندما أخبرهم جارهم الطيب بدعوة عزيز من السليمانية ، صمتت لوهلة ، بينما كان يجول بخاطرها ذلك الشاب اللطيف الذي التقته ذات يوم في مدينة الشطرة. يا

لها من صدفة ! اعتذرت عن الدعوة بلباقة مبالغ فيها ، وأخبرته بلطف أن حالة زوجها الصحية لا تسمح لهما بالحضور في الوقت الحالي ، على أمل أن تتاح لهم فرصة اللقاء في ظروف أفضل .

نقل ربيع اعتذارهم الى عزيز ، الذي لم تثبط عزيمته ، بل بدأ بالتفكير في ترتيب دعوة خاصة لعائلة حياة ، متمنياً أن يجمعهم من جديد.

لقاء ودي

سعى عزيز لترتيب دعوة لعائلة حياة . استقبلت عائلته ضيوفها في يوم ربيعي مشمس ، كان عزيز ينتظر هذا اللقاء بشوق وحنين لا حدود لهما ، وكأن الزمن أعاده إلى لحظة البداية. طفت الذكريات على السطح ، وجرت في عقله جريان نبع متدفق ، يسترجع معها تفاصيل مضت لكنها لم تفقد وهجها. بعد الترحيب الحار ، قال عزيز بنبرة يغلفها التأمل : "كل واحد منا مثقل بجراح الحياة والغربة ، جراح تتشابه أحياناً وتختلف في صور عديدة ، لكنها تترك أثرها في أعماقنا . وليس هناك ما هو أجمل من لقاء يجمع الأحبة أو الأصدقاء من وطن واحد في الغربة. ثم استذكر مدينة الشطرة ، التي غرس فيها أول بذرة ودٍ بينه وبين أهلها ، وتذوق طعم ثقافتها ولغتها ، حتى اشتدّ عوده في تلك السنين التي شكلت جزءً من هويته" .

اجتمعت العائِلتان ببهجة وسرور ، تلألأت أعينهم بالفرح ، ورحبت بهم زوجة عزيز رغم ظروفها الصحية ، كانت لطيفة المعشر ، معسولة الكلام ، قائِلة بلطف ودفء :

- أهلا بكم بيننا ، أهلاً بكم بين أهلكم .

كان اللقاء ودياً ، مشبعاً بالذكريات والحديث العفوي . أما عزيز ، فقد ترامت نظراته نحو وجه حياة مستعيداً عبر ذلك التاريخ المشترك ، الذي ألقى بثقله على كليهما وترك بصماته واضحة. التقت عيناه بعينيها العميقتين ، فرأى فيهما ظل الحنين ووهج الذكريات ، يلفهما صمت مفعم بالكلمات التي لم تُقل . لكن كل هذا أوحى لعزيز بأثار تشير إلى جمال سابق وفتنة ماضية ، وكأنها بقايا لوحة رسمتها الأيام ومرّت عليها رياح الزمن. أما وجه زوجها ، فقد أهمله التاريخ ، فتجعد طولاً وعرضاً ، وأصبح أشبه بلوحة للرسم البياني ، تحكي ملامحه قصة عمر مضى بكل ما فيه من صراعات وانكسارات .

سألهم عزيز مازحاً : أتوقع منكم أن تهاجروا إلى الدول الاشتراكية ؟

– أجابه زوجها بابتسامة باهتة ،" كانت هجرتنا من بلدنا قسراً ، كنا نبحث من يومئ لنا من بعيد ، حتى أنبرى لنا ابن خال حياة من هنا ورتّب لنا الهجرة إلى لندن . بعد سنين عجاف ، قسى علينا القدر ورمانا في محطات لم نحمل منها غير القهر والبؤس ، تعرضنا للإذلال بعيداً عن وطننا ، وضاقت علينا الأرض بيابسها ومياهها ، وكأن العالم قد أفرغ من الهواء . كنا نؤمن أن الطرق الوعرة تقود إلى العظمة ، لكننا أغفلنا حقائِق الحياة ، ومن غفل إفل . أفرطنا في التعلّق بالتفاهات ، ولم ننتبه إلا بعد فوات الأوان .

عندها ، شاركت حياة في الحديث ، وقد استيقظت ذكرياتها في سرها ، كأنها تعيد فصلاً من فصول حياتها ، مستعيدةً لقائها الأول بعزيز ، والانبهار الذي شعرت به حينها ، أدركت أن ذكريات الأيام الجميلة لا تعود ، مهما حاولنا استرجاعها. قالت بصوت يشف عن مشاعرها المتشابكة .

- لا نستطيع أن نصف مدى سعادتنا بهذا اللقاء. كنا نظن أن كل ما آمنا به مجرد حلم. فقد تغّيرت أوضاع العالم ، وتغيرت مفاهيمنا معه. ثم شكرتهم على حسن الضيافة ، وأردفت بعبارة علّقتها كحكمة(لا تدوم المودة إلا مع الاصيل) . ودّعوهما على أمل لقاء قادم ، لكن في أعماقهم كانوا يدركون أن بعض اللقاءات تترك أثراً أعمق مما يبدو ، وربما تحمل معها تساؤلات لا إجابة لها .

القلوب الطيبة

استعدت حياة لاستقبال عائِلة عزيز في بيتها الصغير ، الأنيق بروحه قبل مظهره ، كانت تحدث نفسها قائِلة : " مازال للعالم القدرة على إسعادنا ، وهذا زوجي سيظل كل أشيائي الجميلة". وحين تراه كانت تصمت للحظات ، تحدق فيه بإعجاب ، كأن هيبته تسرق منها الكلمات. لقد كان معلمها وقدوتها طوال تلك السنين العجاف .

حضر عزيز وزوجته ، التي كانت قد اعتذرت عن الحضور المرة الأولى ، لكن إلحاحه جعلها تخضع للأمر الواقع على مضض . استقبلهم عادل بابتسامة بدت أكثر إشراقاً هذا اليوم ، إذ تحسنت صحته قليلاً ، وتبددت بعض آلامه ، وبات يشعر بتحسن بعد العلاج . قال وهو يتحدث بشيء من الحنين :

- كانت لدينا أحلام كثيرة ، كنا نظن سنحققها ، لكن عزاؤنا اليوم أننا اصبحنا أكثر أماناً من أي وقت مضى. ابننا مناضل حصل على شهادة الدكتوراه في البرمجيات ، وأبنتنا دنيا اجتازت دورة متقدمة في القضاء الاداري ، يؤهلها لتتسنم منصب جديد. ها هي ثمرة جهدنا ، وهذا عزاؤنا في هذه الحياة .

شاركت زوجة عزيز في الحديث ، وكعادتها ، لم يخلُ كلامها من ذكر آيات القرآن ، إيماناً منها بأن الله غفور رحيم ، أن نعمته عليهم بالإستقرار والسكينة تستحق الحمد . تحدثت عن أبنائِها الثلاثة ، الذين حصلوا على شهادات مرموقة ويسيرون في الطريق القويم ، بعيداً عن مغريات الحياة وشوائبها. لكنها لم تخفِ أن الغربة أخذت من كيانها الكثير ، وجفت مشاعرها ، حتى بات قلبها يتشقق كلما انحدرت دمعة مالحة من عينيها. عزاؤها الوحيد هو زيارتها لأهلها بين الحين والآخر ، أما اليوم ، فهي تشم رائِحة الوطن من خلال هذا اللقاء ، وترى صوره تتجلى أمام عينيها ، ليخفف ذلك من جوعها العاطفي مؤقتاً .

عند المغادرة ودّعتهم عائِلة حياة بحفاوة ودفء ، كان اللقاء لم يكن مجرد زيارة ، بل كان استرجاعاً لوطن مفقود . وبينما كانا يسيران عائِدين ، التفت عزيز إلى زوجته وقال بحكمة تنبع من قلبه :

- لا مكان في الأرض إلا للقلوب الطيبة .

الفقدان المؤلم (٢٠٢٢)

في أوائل شهر ديسمبر ، تلقى عزيز اتصالاً من صديقه ربيع . كان الأخير متردداً ، لكنه أدرك أنه لابد من إبلاغه بالخبر المؤلم .

"أنا آسف ، عزيز ، أن أخبرك بمرارة وفاة صديقنا المهندس عادل"

وقع الخبر كصاعقة على رأس عزيز ، فتملّكته الصدمة والذهول ، ولم يستطع إلا أن يتمتم بحزن عميق :

- آه .. خبر مؤلم .. رحمه الله ، لا يدوم الا وجه الله .
- ومتى سيكون التشييع ؟
- الساعة الرابعة عصراً .

في تلك الأثناء ، كانت حياة تتصل بأقاربها وبعض الاصدقاء لإبلاغهم بالمصاب الجلل ، فيما .حضر عزيز وحده ، أذ حالت الظروف الصحية لزوجته دون مرافقتها له ، بملامح حزينة ، وقلب مثقل بالألم. تم تشيّع الجثمان الى المقبرة الاسلامية . كانت حياة تقف إلى جانب أبنائها ، تستقبل المعزين بصبر يكسوه الحزن العميق .

مضت الأيام ثقيلة على حياة بعد أن غادرها أبناؤها وانشغلوا بحياتهم الخاصة ، فوجدت نفسها وحيدة بين جدران الذكريات. لم يفارقها عادل في يقظتها ولا في أحلامها ، وكأن رحيله لم يكن سوى غياب مؤقت.

ومع مرور الوقت ، بدأ بصرها يضعف ، ولم تعد تهتم بنفسها كما كانت من قبل .

كان عزيز يتردد عليها بين الحين والآخر ، رغم أن قواه هو الآخر قد خارت ، وأصبحت إحدى قدميه تعاني من هشاشة جعلت سيره متعسراً . كانت تستمع إليه بصمت وهو يتحدث ، لا لشيء سوى لتملأ الفراغ بصوته. كان يبتسم لها بين الكلمات ، ابتسامة تحمل تعاطفاً خفياً ، محاولة منه لتبديد الحزن العميق الذي سكن عينيها. بين لحظة وأخرى ، كان يرفع بصره إلى وجهها ، فتدهشه تلك الدموع المتجمدة في عينيها ، وكأنها تحمل ثقل الأيام التي مرت .

وحان وقت المغادرة ، نهض عزيز بهدوء ، وأشار لها برقة ، قائلا بصوت دافئ :

- سأعود لاحقاً ، ثم مضى ، تاركاً خلفه ظلاً من الأمل وسط الوحدة التي احتوتها .

جبر الخواطر

حضر عزيز في اليوم التالي ، وكانت السماء ملبدة بالغيوم البيضاء ، محملة بثلج لم يسقط بعد. لف الطريق برد الشتاء ، وأحاطته الأشجار العارية ، وكأنها هياكل قديمة تنتظر دفء الحياة من جديد .

عندما وصل إلى منزل حياة ، ضغط على زر الجرس ، ثم أخرج قطعة علكة بنكهة النعناع ومضغها سريعاً ليخفي رائحة السجائر التي كان يعلم أنها تثير حساسيتها. انتظر قليلاً ، لكن الباب لم يفتح. شعر بقلق خفيف ، فأسرع بمعالجة المقبض ، فوجده غير محكم الإغلاق ، فتمكن من فتحه بسهولة .

دخل إلى الغرفة الخارجية ، وألقى بنظره في أرجاء المنزل باحثاً عن حياة . فوجئ بها واقفة أمامه ، تستقبله بكلمات ترحيب مقتضبة ، بصوت بدا عليه الوهن :

- أهلاً عزيز .. لا تتعب نفسك ، أنا بخير .

شعر أنها تخفي تعباً خلف كلماتها ، فسألها بلطف :

- هل تحتاجين شيئاً؟ يمكنني إحضاره لك.
- هزت كتفيها بإيماءة خفيفة ، لكنه شعر أنها ترغب في أشياء كثيرة لم تنطق بها. لاحظ على وجهها ندوباً لم يكن قد رآها من قبل ، وأدرك

أن أصابعها لم تتوقف عن الارتعاش ، وأن جسدها بدا أقل حجماً وضعفاً .

- دعاها الى الجلوس على كنبة كانت خلفها ، فأومأت برأسها موافقة ، وجلست ببطء ، كأنها تحمل على كتفيها عبء السنين .

طاف في خياله الزمن البعيد ... حياة الفتاة الجذابة ، التي كانت تملأ المكان بإشراقتها . لم يصدق ما يراه الآن . لقد بدت وكأنها نسخة باهتة من تلك الفتاة التي عرفها يوماً .

شعر بأن الوقت لم يعد يحتمل التأجيل . عقد عزمه قائلاً لنفسه :

لن يمنعني شيء عن الاعتناء بها. لابد من عرضها على طبيب مختص، وهذا الأمر لا يحتمل التأخير .

اتصل عزيز بأبنائها واخبرهما بوضعها ، ثم التفت إليها وأقترح عليها زيارة الطبيب. ألقت عليه نظرة متسائلة ، لكنه ابتسم لها مطمئناً ، فأدرك أنها مستعدة لرحلة العلاج .

نظر إلى ساعته وهو يفكر:

– هل نذهب إلى مصحة نفسية أم إلى طبيب العائلة ؟

– لا ، لن افقد الأمل ، سأجرب طبيب العائلة أولاً .

اصطحبها إلى العيادة ، حيث جلست أمام الطبيب ، وأخذ يمازحها بلطف ، وهي ترد عليه بعبارات مقتضبة .

ثم وكأنها تحث نفسها بصوت مسموع ، تمتمت :

- لقد فقدت اللقاء به...ضاع كل أمل في لقائه.

كانت عيناها تبحثان في وجه عزيز عن أجابة ، نظرة يملؤها الصدق والقلق .

سألها الطبيب برفق :

- هل ترغبين في الحديث عن حياتك؟
- نظرت إليه بعينين مجروحتين ، ثم أمالت رأسها قليلاً وحدّقت في عزيز من تحت جفونها المتهدلة ، وكأنها تسأله بصمت. فهم مقصدها ، فنهض بهدوء وخرج من الغرفة ، تاركاً لها المساحة لتبوح بما تخفية في أعماقها ، دون أن تخشى أن يسمعها أحد .

استجابت حياة لنصيحة طبيبها وفتحت باباً من الأسرار ، متحدثة عن مسار حياتها حتى فقدان زوجها ، الذي كان محور حياتها ورفيق دربها في الأفراح والأتراح. عاشت معه ظروفاً قاسية ، وأخرى خالية من الحياة ، لكنها استمدت منه النضج والحيوية ، وكأنها سلحفاة تخرج من سبات الشتاء إلى دفء الشمس . حاول الطبيب أن يكون صديقاً مقرباً. وعندما سألها عن عزيز واهتمامه بها. أجابت بهدوء :

- بعد وفاة زوجي ، شعرت بحزن شديد وضياع ويأس . عرفت عزيز عندما كنت أفكر في الضوء والدفء والضحك ، والآن هو بجانبي في أيام السواد والحزن .

أشعر بالأمتنان لوجوده ؛ إنه هدية القدر لي . علاقتنا تحولت من حب مراهقة إلى صداقة وفية للعائلة ، الحب لايدوم ، لكن الصداقة تبقى.

- رد الطبيب .. مؤكداً" المشاعر غير المعبّر عنها لا تموت أبداً ؛ إنها دُفنت حيّة ، وستظهر لاحقاً بطرق شتى" .

أدرك الطبيب حالتها وتعاطف معها ، فسألها :

- كيف تشعرين الآن ؟
- أجابت : "أشعر بألم ينهكني ، ويسحقني ، ويهزمني. أريد أن أعرف إلى أين أنا ذاهبة . لم أستطع التوقف عن التفكير بزوجي" .

مد الطبيب يده إلى طبق حلوى من اللوز المحلى على مكتبه وقدم لها واحدة. ابتسمت وأخذتها . نادى الطبيب على عزيز ، وقرر وصف علاج للرعاش ، وحدد نظاماً غذائياً غنياً بالفيتامينات ، مع التركيز على ممارسة المشي .

تطوع عزيز بمرافقتها للألتحاق بمركز اللياقة البدنية القريب من منزلها. زارتها ابنتها لاحقاً ، بينما تأخر ابنها في زيارتها بسبب بُعد مدينته وارتباطه ، وهي تردد بيت الشعر للمتنبي :

فَمَا يُديمُ سُرُورٌ ما سُرِرت بهِ *** وَلا يَرُدّ عَلَيكَ الفائتَ الحزَنُ

تحسنت حالة حياة تدريجياً حتى استعادت قدرتها بالاعتماد على نفسها . كان عزيز يتواصل معها بين الحين والآخر ، أو تتصل به عند الحاجة ، لكنه كان شديد الحذر في تصرفاته ، حتى لا يُساء فهم نواياه أو يبدو منّةً منه ، نظراً لحساسيتها المفرطة .

بدأت تعيد ترتيب منزلها ، فوضعت الكراسي في أماكنها بعناية ، وزيّنت المائدة بمزهرية من زهور السوسن الوردي ، الأزهار التي كان عادل يحبها رغم رائحتها النفاذة . استعادت بعضاً من إيقاع حياتها السابقة ، فصارت تزور ابناءها بين الحين والآخر ، وتتردد على جيرانها ، كعائلة ربيع وعائلة عزيز ، بل أصبحت صديقة مقربة لزوجة عزيز ، تشاركها الحديث واللحظات الدافئة .

وأخذت تفكر" يجب ان نبقى أصدقاء ، فالحب عمره قصير جداً ، لكن الصداقة قد تمتد إلى الأبد . هناك أشخاص ، بمجرد أن تراهم ، تدرك أن الحياة مازالت بخير" .

كانت تشعر بالامتنان لعزيز ، ليس فقط لوقوفه بجانبها في أصعب أيامها ، ولكن لأنه كان يمثل ذلك الوجه المألوف من الماضي ، الذي يربطها بجذورها وبالأيام التي مضت ، رغم كل ما تغير .

كانت تدرك الآن أن الزمن لا يغير أحداً ، بل يكشف كل إنسان على حقيقته . لم تعد تذكر زوجها كثيراً كما في السابق ، ليست نسته ، بل لأنها تصالحت مع غيابه ، ووجدت في الحياة ما يكفيها للمضي قدماً دون أن يثقلها الحنين .

اشياء لا تنسى

أخذت حياة تنقل امتنانها إلى عزيز عن اهتمامه بها وملاحظته لوجودها ، وتحاول أن لا تصر على نبش اوضاعها ، لكن ذاكرة الماضي كانت تستمر في التسلل إليها ، تتنقل بين ازقتها القديمة . وبينما كانت تسير في أفكارها ، تذكرت قول نزار قباني:" نسيته ، ربما لاحقاً تذكرته".

كان عناق والدتها وهي صغيرة يمر أمام عينيها ، وهي الآن بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى . كم كانت تشعر بالأمان وهي تختبئ في أحضان والدها ، كان هو الوطن الذي يبدد كل الغضب المكلل بمرارة الغربة .

كلما تخطو بجانب أسوار حديقة (بلدية برنت) المحاذية للطريق العام، كانت هناك رائحة تعرفها جيداً ، تعبئ أنفاسها وتذكرها بزوجها الذي كان يردد شعر مظفر النواب" يا حزن يا ريت ... أعرفك" وقد رحل حزيناً .

وهو مصدر الأنبعاث لكل ما هو جميل عن الوطن وذكرياته ، وتظل تلك الرائحة حية في روحها ، برغم غيابه ، وكأنها ماتزال تردد أغانيه التي طالما غنَّاها عن حب الوطن .

بدأت حياة تستعيد ذكريات شبابها في مسقط رأسها ، حيث شغفها بقراءة الكتب السياسية الممنوعة والروايات الكلاسيكية لمشاهير مثل هيكل ولينين ، والشعراء مثل نزار قباني ومظفر النواب. كون والدها من

ذوي الفكر التقدمي ، كانت متمردة ومشاكسة في طفولتها ، خاصة كونها الفتاة البكر لوالدها. عند بلوغها الثالثة عشرة ، توفي والدها ، ترك في نفسها جرحاً لم يُشفَ ، فقدت حينها دلالها ، بدأت تتحشم على مضض ، غير مقتنعة بقطعة القماش التي تضعها على جسدها ، لم تكن تؤمن بالأفكار غير المنطقية التي تجعل من تلك القطعة مقياساً للشرف والعفة. لكنها فعلت ذلك حفاظاً على سمعة عائِلتها في ذلك المجتمع. اجتازت المرحلة المتوسطة محاطة بأقرانها ذوي التوجه المفعم بالإندفاع الثوري ، وكانت في المرحلة الاعدادية توجتها بعلاقة اكثر نضجاً مع عزيز وبودّ نقي.

جلست على سريرها ذات مرة ، ودموعها الحارقة تملأ عينيها ، متمتمة بأنها لا تريد سوى الوطن وزيارة قبر أمها التي فقدتها منذ زمن بعيد، لتطفيء نار شوقها وتهدىء عذاباتها . بحثت عن الحجر الكريم ذي اللون الفيروزي الذي أهدته لها أمها عند زواجها ، وتخيلت كأنها تحوم فوقها ، تنتظر زيارتها. كانت تتمنى زيارة قبر أمها ، برغم يقينها بأنه قد تآكل بفعل الأمطار أو اختفى بين القبور ، على عكس قبر أبيها الذي كان معلماً كما عهدته عند طفولتها وزيارتها له . أعترفت الآن اكثر من أي وقت مضى بأنها عراقية لا تكف عن البكاء؛ فإذا لم يُبِكها فراق الأحبة ، تبكيها الغربة والوطن ، وتذكرت ماقاله الشاعر احمد شوقي :

وطني لو شغلتُ بالخلد عنه*** نازعتني إليه بالخلد نفسي .

وأدركت أن حنينها للوطن ، لا يمكن ان يتلاشى ، أو يسلب منها هذا الأمل ...

لقاء بعد أربعين عام (٢٠٢٤م)

كانت فرحة عزيز بزيارة صديقه القادم من العراق ، أشبه بنسمة أنعشت روحه وأعادت إليه شيئاً من النشاط والهمة ، مما جعله يتجاوز أوجاعه ولو قليلاً .

بدأ يسرد له فصول حياته ، التي كانت في معظمها مؤلمة وشاحبة ، متحدثاً بحماس عن ذكرياته التي رتبتها له الأقدار ، تماما كما رتبت له هذا اللقاء بعد أربعين عاماً .

قال عزيز متأملاً :

"لقد جعلتنا الأيام نمضي بمحاذاة من نحب كغرباء ، نتلامس في أوجاعنا ، لكن لايحق لنا ان نلتف أو نأخذ أماكن غيرنا . في الحياة لحظات نادرة ينفتح خلالها باب يولجنا نحو النور ، لحظات تمنحنا شيئاً يسعدنا في داخلنا ، فنحلق بعيداً عن الحاضر ، ويعيدنا الحنين إلى الماضي الجميل. نحاول تعويضه في الحاضر ، وندفع القلق والعشوائية بالحب ، حتى لو كانت لحظاته قصيرة" .

استمر الحديث طويلاً ، وكان اللقاء مليئاً بالمشاعر المتداخلة بين الحنين والغبطة ، حتى شعر عزيز أخيراً بأن شيئاً من السعادة قد ملأ قلبه من جديد .

عائلة عزيز الصغيرة تقطن في شقة أنيقة بالطابق الأرضي في عمارة(حي بارك رويال) ، وهو حي راقٍ يقع غرب لندن ، يتميز بالهدوء والرقي ، كما أنه مرغوب برغم ارتفاع تكاليف السكن فيه ، على عكس شمال لندن . يقطنه مزيج من السكان ، بين الإنكليز والعائِلات القادمة من دول الخليج .

تتكون عائلة عزيز من زوجته وابنه البكر ، بالإضافة إلى ابنين آخرين؛ أحدهما متزوج ولديه طفلان ، ويسكن في شقة مستأجرة قريبة ، والآخر متزوج حديثاً من فتاة عراقية عربية ويقيم في حي ليس بعيداً عنهم. تحيط بالبناية حديقة واسعة تفيض بسحر الطبيعة ، وعند السير فيها تهب نسمات باردة تلامس الوجة ، ويتردد خرير الماء من أكثر من مجرى متفرع في أركانها. تزقزق العصافير بخفوت ، كأنها هي كذلك تطلب الهدوء ، فيما تملأ الاجواء خشخشة الأغصان تحت وقع الخطى ، مع انتشار رائِحة الأرض المبللة وأوراق الأشجار المتحللة. بين الأدغال الكثيفة والصخور الناتِئة ، تبدو الحديقة كلوحة انطباعية تنبض بالحياة ، لكنها في الوقت نفسه تحمل هدوء الأحلام الصامتة .

كل هذه الأجواء ، كان الهلع ينتاب عزيز كلما راودته أحلامه التي لم يحققها ، وكانت تقاوم النسيان عنده ، وهو يكابر حماقة الغربة التي أخذت من زوجته الكثير ، والتي بدت ملامحها ترتجف من شدة المرض والغربة .

ومراتٍ تنتحب ويعجز عن تهدئتها ، رغم أنه يربت على رأسها ليطمئِنها ، ويأمل العافية لها ، الا أنها تنظر إليه بعينين غائِرتين كأن الحياة لاتمنحها فرصة تخلو من الدموع. لم يقل لها ذلك لمواساتها فقط بل كان يشعر يقِيناً أنها تتحسن عندما تلتقي بأمها الوحيدة التي بقيت لها في الوطن ، وستكون عذراً له لزيارة وطنه هو الآخر ليبدد مشاعر الغربة .

كان يتألم عندما يرى ابنه الصغير يجهل لغة الوطن ، ولكن زواجه من فتاة عربية من بغداد ، هدأ من خيالاته .

الوفـــــــاء

أخذ حنينه للوطن وذكرياته في مدينة الشطرة طاغياً ، فقد أكتشف تاريخاً مذهلاً لتلك المدينة على وجه الخصوص ، ومعرفة أهلها بتاريخها الأثري العميق والمستوى الحضاري الذي كانت تعيشه ذلك الوقت. فيها وعد حياة أن يكمل دراسته الثانوية عند عودته الى مدينته ، عسى أن يتيح لهما القدر يوماً التواصل بشكل أفضل وأكثر خصوصية. وها هما يلتقيان بعد أربعين عاماً ، وكل منهما نخرته الحياة ، وجف الأمل ، وسقطت حجتهما بالتفكير ليوم غد ، وعاش كل منهما في جلباب ما كتب له الزمن .

في الأيام الأخيرة ، يتمنى أن يُلقى بجسده النحيل في حضن أمه، ليستريح ويغفو ثم يستيقظ على صوتها الحنون ، كان محمود درويش صائباً حين قال : " الغربة ليست اغتراب الجسد عن الوطن ، بل اغتراب الروح عن السكينة" .

تواصل معها كل صباح ، رغم فارق التوقيتات ، وهي في قريتها "ميردي" كانت تبكي وتوصيه قائلة :

- كن قوياً يا بني ، فأنت عراقي .

- نعم ، يا أمي ، الغربة والفقد كانا وما يزالان جزءاً من حياتنا ، وأمراً بديهياً لا مفر منه . ومع ذلك" هناك شيء غامض يميز الوطن ، شيء لا نستطيع العيش بدونه ، ولا نستطيع العيش فيه" .

لقد بالغت الحياة في هدرنا ، (بعد أن غذى أصحاب الفتن الطائفية والعنصرية نار الكراهية ، وجعلوها شعاراً للقتل والخراب) . برغم ذلك ، لكل منا دور في هذه الحياة ، ولا نسمح لأي شيء بأن يسلب منا الأمل. فهناك مواقف عظيمة تجعلنا نتضامن مع وطننا فهو هويتنا والسر الذي يمنحنا المعنى ، الذي يسكن وجداننا بلا شبيه .

سنوات الشتات

د. جميل موسى ضباب

صدر للمؤلف

١ـ رواية (الحلم .. ولد هناك) ٢٠٢٣

٢ـ رواية (الحزن .. لا يقتل الاحلام) ٢٠٢٤

٣ـ طرق وتقنيات حديثة في التحليل الكيميائي الآلي ٢٠١٣.

٤ـ اسئلة واجوبة في الكيمياء (انكليزي) ٢٠١٤.

٥ـ اتجاهات معاصرة في نظام جودة واعتماد المختبرات ٢٠١٥.

٦ـ مفاهيم ومباديء في نظم ادارة الجودة والاعتماد ٢٠١٦.

٧ـ استخلاص ايونات الرصاص والكادميوم والزنك والرينيوم باستخدام تقنية الغشاء السائل, ٢٠١٦ دار النشر الالمانية (سكولاربريس)

٨ـ الكيمياء الاساسية في العلوم الطبية (انكليزي) ٢٠٢٠

٩ـ طرائق وتقنيات حديثة في التحليل الكيميائي الآلي ٢٠٢٢ طبعه ثانية

١٠ـ التلوث البيئي والطاقة المتجددة ٢٠٢٤

مكتب زاكي للطباعة
بغداد ـ باب المعظم
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٦٨٠ لسنة ٢٠٢٥

د. جميل موسى ضباب